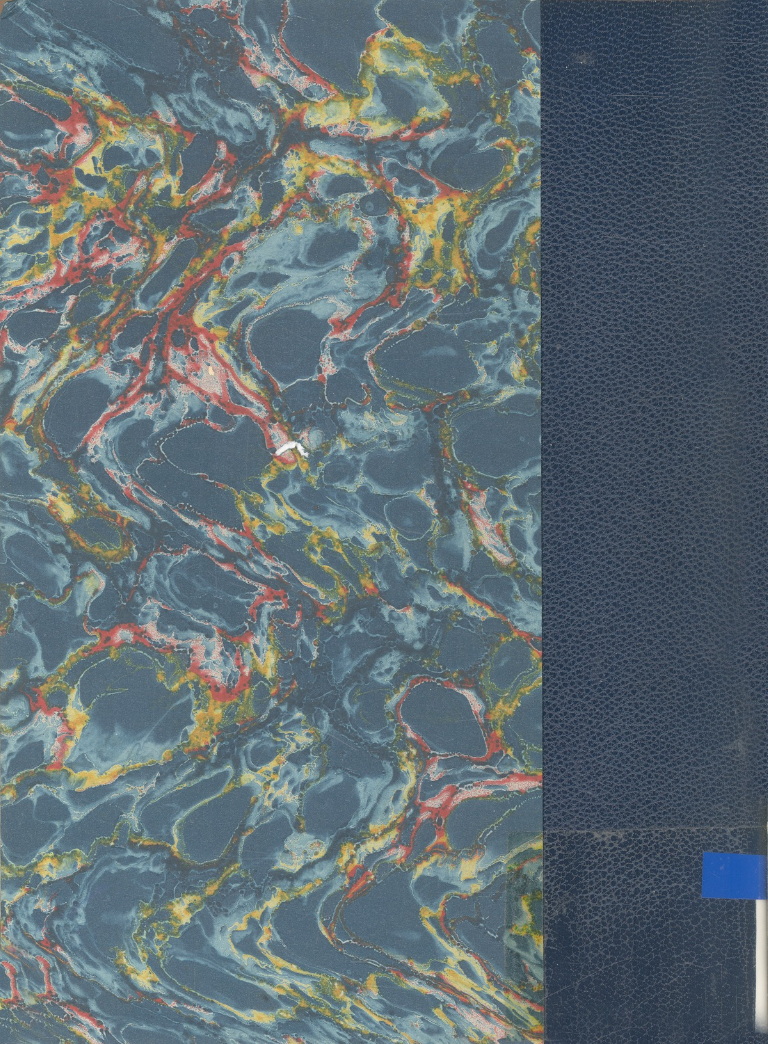
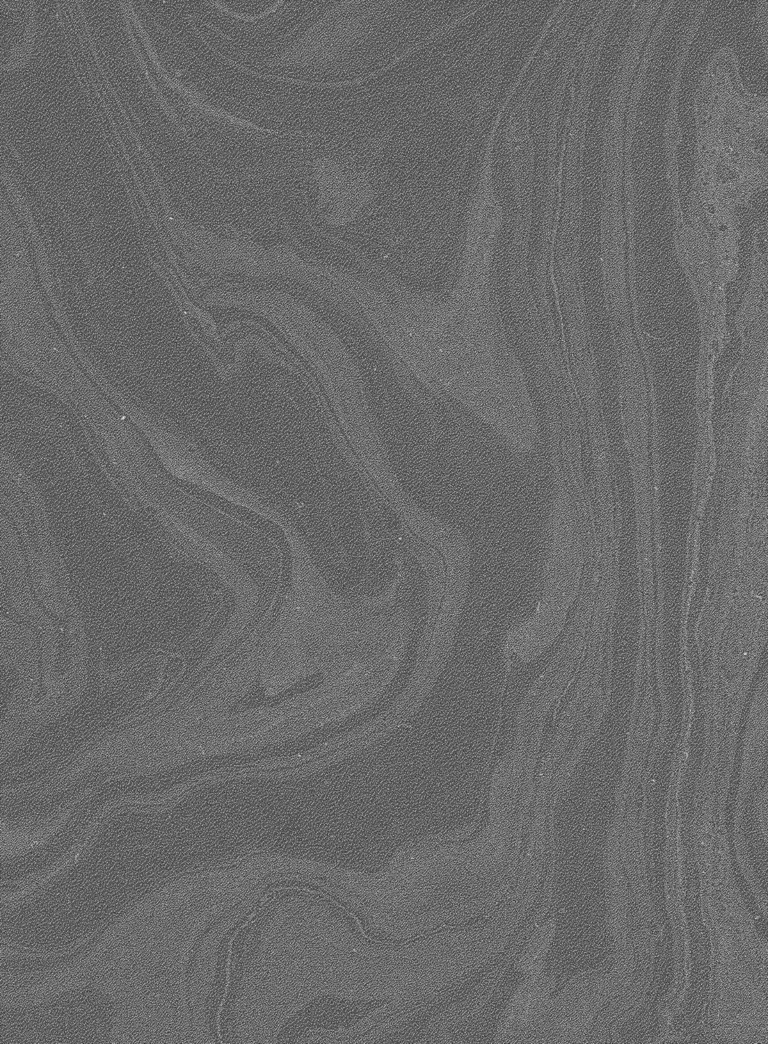
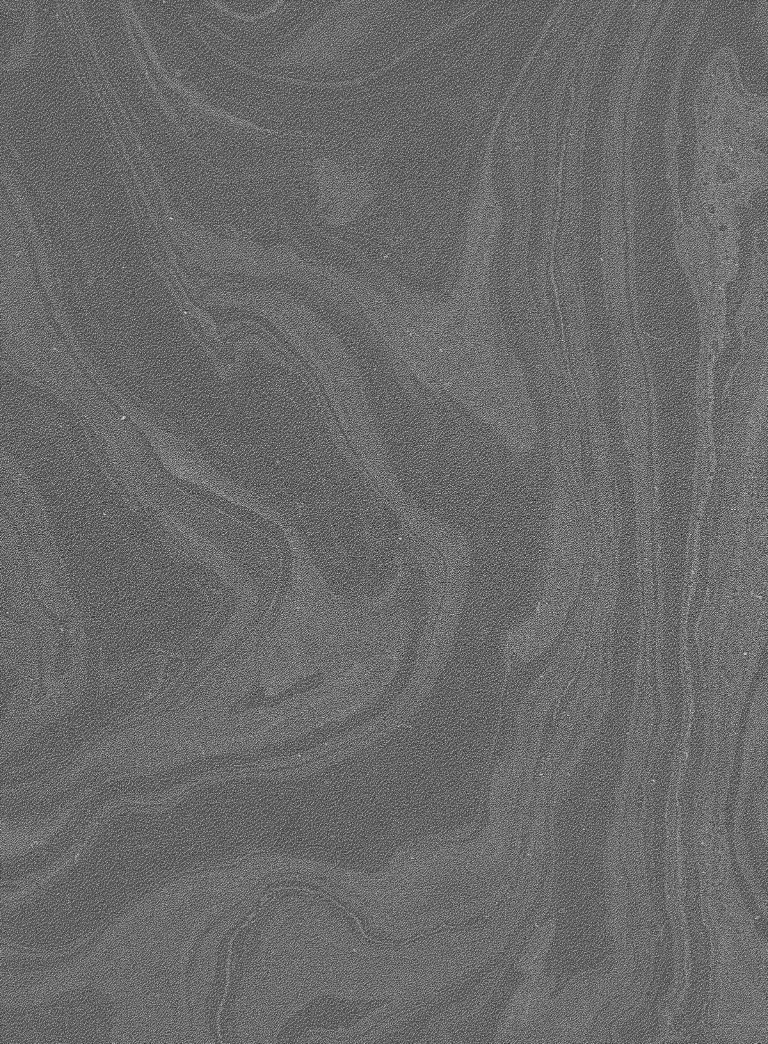






كتاب

سرّ مملكة

تأليف

سليم سركيس
صاحب جريدة المشير ومحررها ومدبرها

***

﴿ الجزء الاول ﴾

تاريخ حياة عبد العزيز وقتلهِ : ولاية مراد وخلعهِ : محاكمة مدحت باشا واعوانهِ

طُبع في مصر سنة ١٨٩٥





حضرة دولتلو نجابتلو محمّد رشاد الدين افندي
ولي عهد السلطنة العثمانيّة

اهداء الكتاب

أُقدّم هذا الجزء هديّةً الى حضرة دولتلو نجابتلو

محمد رشاد الدين افندي

ولي عهد السلطنة العثمانيّة دام وجودهُ

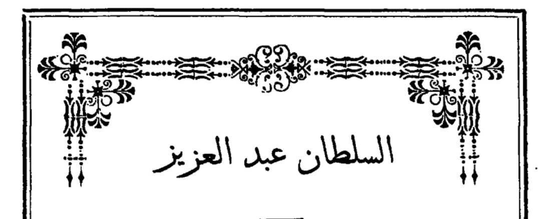
ليعرف ادامهُ الله ماضي دولتهِ فيحكم كيف يجب ان يكون مستقبلها

العثماني الحرّ
سليم سركيس



مقدّمة

سمَّيتُ كتابي هذا "سرّ مملكة" لانَّ تاريخ سلاطين تركيا كلهُ اسرار غامضة . وهذه المرة الاولى الّتي ظهرت فيها هذه التفاصيل في اللغة العربيَّة وقد ظهرت قبلاً باللغتين الفرنسويَّة والانكليزيَّة لكن تركيا ابتاعت تلك المؤلفات وكتمت امرها وقد حاولت ان تبتاع كتابي هذا كما حاولت ابتياع جريدتي "المشير" فامتنع عليها ذلك فأعدتُ طبعهُ نقلاً عن الفصول الّتي نشرتها تباعاً في المشير ويلي هذا الجزء الجزء الثاني وفيهِ تاريخ حياة جلالة السلطان عبد الحميد والسلطان مراد وكيفيَّة خلعهِ ومعيشة السلاطين في قصورهم وخلواتهم وغير ذلك من الاسرار الّتي تجب معرفتها



السلطان عبد العزيز

السلطان عبد العزيز امير المؤمنين وسلطان السلاطين ظل الله على الارض وخليفة رسول رب العالمين خاقان البحرَين وسلطان البرَّين من تشرَّف الوجود بوجودهِ واشرق بدر السعادة في منتهى سعودهِ الخ (كما هو الواجب على الصحف العثمانيَّة ان تلقب السلطان عند ما يرد ذكر اسمهِ) كان رجلاً قويًّا ملآن الوجه بعينين واسعتين محدقتين

تحدَّث الناس بسلوكهِ وخصوصاً رغبتهُ الفائقة في المال والاسراف المتناهي الذي كان يستعملهُ لتبذيرهِ فكان يدأبُ على احراز المال فينال مشتهاهُ ثم ينفقُ ما احرزهُ على تشييد قصر جديد مثلاً فانهُ كان ولوعاً ببناء القصور العظيمة اذ تنبأَ لهُ بعضهم انهُ يبقى حيًّا ما لازم البناء . وجاء بالاسود



والنمورة من افريقيا والهند وكان يضع طير الببغاء في اقفاص تملأُ جوانب القصر واتى بمركباتٍ كثيرة من جميع المعامل في اوربا اما البيانو " آلة طرب " فكانت تعلق على اكتاف الرجال ثم يُضرَب عليها ليطرَب جلالتهُ وكانت تلذُّ لهُ مبارزة الادياك فيمنح الديك الفائز في العراك وساماً يزينهُ كما كان كومدروس يزيّن جوادهُ

وقد تمرُّ بهِ اوقات لا يجد فيها ما يرضيهِ فيسيء الظن بجميع افراد بلاطهِ ويكتفي من القوت بالبيض المسلوق وكان يستولي عليهِ الخوف من النار فيأبى ان يكون على مقربةٍ منهُ شيء مصنوع من الخشب ويقرأ في الليل على نور شمعة موضوعة في الماء ولم يكن يؤثر عليهِ في هذه النوب الاَّ والدتهُ التي اعماها حب ولدها عن عيوبهِ وستر عنها الخطر الذي يتعرض لهُ فما لبث الرأي العام ان قضى عليهِ

اما ساكن الجنان السلطان عبد المجيد فتوفي بعد ان طال ملكهُ الى اجل غير عادي فقد ملك ٢٢ سنة ولم تسبق العادة ان يموت السلطان العثماني حتف انفهِ وعلى فراشهِ

ميتة الهدوّ والسكينة ولا ان يشتمل عبد العزيز من بعده سيف عثمان (جرياً على العادة المألوفة) بدون مذبحة او ثورة

وكان عبد العزيز في شبابهِ طاهر الذيل من كل وصمةٍ نظير نيرون في شبابهِ جميلاً مجتهدًا بالنسبة الى اجتهاد الامراء وهو الذي عقد مجالس شورى الدولة في السر عسكريَّة التي كان يرئسها بذاتهِ وتلك المصابيح المشرقة بالعدالة في ظلام الليل انبأَت الشعب ان امير المؤمنين منهمك بذاتهِ في مصالح الدولة والامة

وكان عبد العزيز في تلك الايام السعيدة موضوع ثناء الناس يلهجون بمديحهِ وهو لاهٍ عن اطماع السلطان واميال الاهواء باشغال الدولة . لم يتخذ لهُ في ذلك العهد الأ امرأة واحدة تزوجها بموجب الشرع واحلها محل الاهل ومعلوم ان من عادة السلاطين في عيد الاضحى ان تقدم الوالدة سلطانه لابنها السلطان جارية ممتازة في جمالها . اما عبد العزيز فكان يقبل تلك الهديَّة عملاً بالتقاليد ويدفعها

رأساً الى زوجتهِ تستخدمها في الحرم فلا يراها ولا يميل بقلبهِ الى تجربة هذه العادة

وانشأ المدارس قرب كل جامع وسهل التعليم المجاني لرعيتهِ اليونان والارمن حتى اجاز للاسرائيليين تلقي العلوم فيها نظير سائر افراد الرعيَّة

وقد فعل كل ذلك بعناية رجلين وهداية سياسيين ممتازين لم تحرز تركيا افضل منهما نعني بهما امين عالي باشا والرجل العظيم فؤاد باشا القانوني الشهير والعالم الكبير صاحب الوصيَّة الشهيرة . ولهذه الوصيَّة شهرة عظيمة كنتُ قد قرأتها لاول مرة في جريدة المُقَطَّم اثناء اقامتي في انكلترا ونقلتها الى العدد الاول من جريدتي (رجع الصدى) التي انشأتها هناك وها انا اكررها هنا لتكون من آثار التاريخ المحفوظة . قال مخاطباً جلالة السلطان

مولاي المُعَظَّم

لم يبقَ من عمري الاَّ ايام او ساعات معدودة اقوم فيها بواجب المصلحة العموميَّة واريد ان ابسط امام عرشكم

السامي آرائي الاخيرة وهي آراء محزنة بدت لي بعد خدمة طويلة تعيسة على انها لا تبلغ اريكتكم ولا تعرَض على نظر جلالتكم الأَ وانا قد فارقت هذا العالم ولذلك تستمعون اقوالي في هذه المرة ولا يخامركم سوء ظنٍ فيها لان الصوت الخارج من القبر يكون صادقاً

ان الله عزَّ وجل اولاكم مأموريةً عظيمة الشأن محفوفة بالاخطار فلكي توفوها حقها يجب على جلالتكم قبل كل شيء ان تعرفوا هذه الحقيقة المحزنة وهي ان الدولة العليَّة في خطر لان تقدم جيراننا السريع وغلط سلفائك الفظيع غادرنا محفوفين بالاخطار وللتخلص من هذه الشدائد يجب على جلالتكم ان تتناسوا العالم الماضي وتقتادوا الامة الى مقاصد جليلة جديدة . واعلم ان جماعة من ابناء الوطن الجهلاء يحاولون اقناعكم انهُ يمكن لنا ارجاع عظمتنا القديمة بواسطة اصطلاحاتنا الماضية ولكن هذا خطاء ووهم لا يعوَّل عليهِ . نعم انهُ لو كان جيراننا باقين على ما كانوا عليهِ قبلاً لكانت اصطلاحاتنا القديمة كافية لجعلك قاضي

اوربا وحكمها . ولكن اين هم الآن مما كانوا عليهِ منذ مئتي سنة . فقد تقدموا علينا جميعاً وتركونا وراءهم بمراحل عديدة . — الى ان يقول — . انهُ محكوم على دولتكم بالموت لا محالة ان لم تكن ماليتها كماليَّة انكلترا ومعارفها كمعارف فرنسا وعساكرها كعساكر روسيا ولاجل ذلك يجب تغيير جميع مدارسنا العسكريَّة والمدنية . ومن سوء الحظ ان الذين يدعون المحافظة على الاسلام ومراعاة الدين الاسلامي يحولون دون تقدمنا بما يطابق احوال عصرنا فهؤلاء لا يصح ان يعدوا مسلمين وما هم الاَّ جهال متعصبون . اذ العلم الاسلامي لايختلف عن العلم الاجنبي بل العلم واحد يضيء كالشمس على كل العقول وقد طالعت تآليف المسلمين لاعرف الحقيقة ولا ازال على يقين مما اقول . وما كنت لاخدع مولاي وبلادي واهل مذهبي وانا في حالةٍ لا يطول معها اقتران روحي بجسدي لاقف عما قليل بين يدي الديان العادل . فاشهد واؤكد لجلالتكم ان المعارف الجديدة الَّتي تأتينا عن يد اهل اوربا ليس

فيها ما ينافي مذهبنا واقسم ان سلامة مذهبنا لا بدَّ لها من هذه المعارف الَّتي لا تثبت مملكة في اوربا ما لم تؤَسس عليها . نحن لسنا كفوءًا لاعدائنا ولا قبل لنا بمحاربتهم ان لم ينجدنا اصحابنا وحلفاؤُنا ولو كانت مساعدة هؤُلاء المتحدين غير ثابتة . فدولة الانكليز لم يظهر ان مصافاتها لنا ثابتة كقوانينها ولكننا قد استفدنا منها فوائد كثيرة ولا غنًى لنا عن مساعدتها في الاستقبال . وعندي ان الانكليز اهل الثبات يكونون اول احلافنا وآخرهم (ثم يتلو ذلك كلام طويل عن بقيَّة الدول اضربنا عنهُ طلبًا للاختصار) وقال في اواخر وصيتهِ — ولا بدَّ من انشاء المدارس الملكيَّة والحربيَّة على النظام الجديد والاَّ فلا قوة لنا وما دام العلم متأَخرًا عندنا فنحن متأَخرون . اما تأَخر المدارس في عهدي فقد كان بسبب الاحوال السيئة الَّتي كنا فيها واني اوصي خلفائي ان يبذلوا جلَّ عنايتهم في ذلك . اقول هذا وانا عالم ان الجهَّال يحسبونني عدوًّا للدين والدولة ولا يكفون عن شتمي ولكني اسامحهم

لانهم لا يحيطون علماً بافكاري وسيتضح لهم صدق نيتي وطويتي على تمادي الايام ويظهر لهم كفري من ايماني فيعلمون اني كنت اعظم ايماناً واصدق طويةً من كثيرين من الذين يندِّدون بي الآن واني قد جاهدت حسن الجهاد في حفظ هذا المذهب وهذه الدولة التي اوصلوها الى شفا الخراب

﴿عودٌ﴾ وفي تلك الايام السعيدة جرى استبدال القفطان والعمامة بالثوب الافرنجي الرسمي والطربوش الاحمر ولهذا يقال لهُ في تركيا (العزيزي) نسبةً الى السلطان عبد العزيز

واراد السلطان ان يدخل الى بلادهِ وبين شعبهِ العادات الجديدة السائدة في اوربا فعزم ان يزور اوربا ليرى بعينهِ ما اتصل بسمعهِ من انباء المجد والتقدم والمدنيَّة العصريَّة وصحبهُ في تلك الرحلة الشهيرة فؤاد باشا وابنا اخيهِ مراد (السلطان المخلوع) وعبد الحميد (السلطان الحالي) وهما في سن الشباب

والغريب ان هذه التغييرات صادفت الرضى العام

وزايل السلطان الاستانة بين هتاف وتهليل وشيعهُ على يختهِ الى مضيق الدردنيل جميع كبراء المسلمين

ومن ذلك اليوم بدأت المناظرة العنيفة التي لا تزال تبدو آثارها حيناً بعد حين بين تركيا الفتاة وتركيا القديمة واستنتج الناس من رحلة السلطان الى اوربا مهد الحريَّة والمساواة انهُ يرئس عصابة تركيا الفتاة المائلة الى الحريَّة والمساواة

وكان يتبع السلطان في هذه المبادىء عالي باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا الرجل الشهير وكثير من الموالي الشبان والصفطاء وارباب السياسة والمأمورين ولا شك ان النساء التركيات كنَّ يعضدنَ تركيا الفتاة ميلاً منهنَّ الى جميع ما يأتيهِ الشبان

وكان نفوذهنَّ عظيماً من وراء خدورهنَّ الَّا ان الوالدة سلطانه وحدها اعترضت بعنفٍ على هذه الرحلة فلم تجد من ابنها اذناً صاغية ووعدها يوم سفرهِ ان لا يتغيب اكثر من شهر فانجز ما وعد بهِ

وفي ٢٤ يوليو عام ١٨٦٧ عاد عبد العزيز من هذه الرحلة ووصل الى الاستانة واجتاز البوسفور بطريق البحر الاسود قادماً من الدانوب . وجلس السلطان على العرش فوافاه الصدر الاعظم عالي باشا وقد اشغلت خاطره احوال ومسائل الدولة السياسيَّة الحاضرة وخصوصاً نهضة اهالي كريت فدنا من مولاه بمزيد الاكرام وقبل الارض بين يديهِ وقام بفريضة السلام السلطاني كما يجب ثم قال

— أرجو أن تكون جلالتك راضيا عما رأيت

— انا راضٍ مزيد الرضى بل اشكر الله تعالى انني غير اعمى البصيرة نظير ملوك اوربا

— وما الذي جذب نظر جلالتكم الشريف دون سواه في هذه الرحلة

— رأيت المدن الاوربيَّة حسنة البناء ولكنها خالية من جمال مناظر الاستانة وكل انسان هناك منهمك في حشد المال والنساء معرَّضات في المراقص والاستقبالات تعرُّضاً يوجب الخجل متعلقات على أذرع رجال لا نسب

يصلهم بِنَّ وازواجهنَّ لا يبالون بعارهم وعلى وجوه الراقصات ابتسامات لطيفة حلوة الاَّ ان رفاقهنَّ من الرجال يسكونهنَّ ولا يشعرون باكثر ممَّا يشعر بهِ الخصيان وهذا يشير الى عظيم تأْثير العادات السيئة

— احسنت فيما تقول يا مولاي . ان المسلم المؤمن يستغرب التمدن الاوربي ولكن اولئك النساء يكون منهنَّ زوجات امينات وامهات كريمات ولهنَّ في الغالب معرفة الاساتذة وانما دفعهنَّ الى ذلك اتباع العادة الَّتي لا ضرر فيها

— وهل تحسب هذا مِنْ قبيل التهذيب والتمدن والالوف من الناس يموتون جوعاً في لندن وحدها وتملأُ بهم السجون حَتَّى تفيض فهل انت واقف على احصاء ذلك ؟ ان جميع السجون ملآنة

— ذلك لان الجرائم تعاقب حالاً اما العدل فغير كامل عندنا ويسمح للمجرمين بالفرار والنجاة

— انهم لا ينجون من عدل الله

— يظهر لي ان جلالتكم غير متأَثر تأَثرًا حسنًا

— يسرني انني ذهبت الى هناك انما اعترف انني كنت اتوق حقيقةً الى الرجوع الى تركيًا فان مثل تلك الحركة المهولة حيث لكل ساعة ما يشغلها انما هي حياة صبيان المدارس لا حياة سلطان وهؤلاء الملوك يخدمون شعبهم اما نحن فاننا سادة

— واأسفاه يا مولاي ان من حسن حظك ان لا يسمعك احد

— ولماذا ؟ هلاَّ استطيع ان ابدي افكاري . لعلك تريد مني ان اعيش معيشة اولئك الافرنج الذين يقضون وقتهم وينفقون مالهم على الفنون والتجارة والسياسة

فتأوَّه الوزير الكريم وكان قد امل ان يكون مولاهُ قد تعلم شيئًا من روح العصر او من الاختراعات الجديدة والآراء الحديثة والاصلاحات النافعة ولكن ساء فألهُ. وتأيد ظنهُ لما عاد السلطان فذكرهُ بما يشير الى انهُ ازداد توغلاً في افكارهِ الضيقة

وما لبث عبد العزيز ان استأنف الكلام قائلاً

— لا بدّ لي من الاعتراف ان اعظم ما ادهشني كان قبح منظر النساء الاوربيّات المتجاوز الحد فجميعهنّ قبيحات الوجوه الاَّ الامبراطورة اوجيني وامبراطورة النمسا وعندي ان الملك الراغب في التزوج يجب ان تفوق امرأتهُ سائر النساء جمالاً والامر على عكس ذلك في اوربا فانهم على ما أرى يختارون أبسطهم منظرًا في الحسن

ثم حان الوقت لاجتماع عالي باشا بفؤاد باشا يتبادلان الافكار فقال فؤاد باشا هل تكلم جلالتهُ في اشغال الدولة

— لم يذكرها

قال فؤاد باشا — متى سقطنا تعود تركيا الى ما كانت عليهِ

قال عالي باشا — ما رأيك هل يسلك عبد العزيز في سياستهِ خطة اسلافهِ

— نعم لا زيادة ولا نقصان وهو يعتقد انهُ يعرف ما لا تعرفهُ اوربا جمعاء وقد قال لا أجد في هذه الممالك ما اتعلمهُ على انهُ سرَّ بشيء واحد في فرنسا فهل تعلم ما هو

فازداد اغبرار وجه عالي باشا وهزَّ رأسهُ فاستأنف فؤاد باشا كلامهُ قائلاً

— سرَّ في فرنسا بامرأة وفي انكلترا اعجب بالاسطول اما في النمسا وبروسيا فلم يجد شيئًا ملذًّا وكان يعجب دائمًا بجمال امبراطورة فرنسا وأقسم ان يجد امرأة تساويها جمالاً وزاد على ذلك انهُ ليجدنَّ شركسيَّةً اجمل منها

وهنا قاطع حديثهما ان اقبل عليهما مولى فتًى من فتيان طوله بغجه وقد تمكنت منهُ مبادئ تركيا الفتاة الى حد انهُ اصرَّ ان يسلم عليهما مصافحةً

ولنعد الى عبد العزيز فنقول انهُ في مساء ذات يوم ركب جوادًا عربيًّا من الخيل الحسان وقد قام في ركابهِ ضابط واحد فقط وسار تحت الممر المحدق بالحديقة

وكانت الطريق التي سار فيها على مهل محاطة باسوار عالية واشجار باسقة تنتهي الى غابات وغياض وما اعترض السكون السائد الاَّ صوت حديث وراء السور فارتاب السلطان لكنهُ ما لبث بعد التفاتهِ حتَّى علت وجههُ ابتسامة

وتحوَّل الى مصدر الصوت واصغى ثم اسرع فولج باباً للحديقة كان قريباً وبدا من ملامح وجههِ انهُ رأى شيئاً اوجب سرورهُ العظيم لكنهُ كتم الخبر ولم يدركهُ ياورانهِ الذي كان بعيدًا عنهُ

جرى ذلك في شهر ايلول "سبتمبر" وقد نضج العنب الذهبي اللذيذ يزيد حجم الواحدة منهُ على حجم الاجاص وينبت في الحقول المائلة نحو البوسفور وقد ملئت السلال عنباً فوضعت على بساط ممدود ونزعت السيدات براقعهنَّ وتناولنَ سيكاراتهنَّ الى ان يتهيأَ الطعام ثم أَقبلنَ على شرب القهوة المعتادة الَّتي لا يهنأُ عيش بدونها . في تلك الساعة استنارت اطراف السماء بأَنوار شفق يوم من ايام الخريف فجلست الوالدة سلطانة والسلطانة زوجة عبد العزيز الَّتي لم تعد تشغل من قلبهِ مكانها السابق وعمتهُ ونسيبتاهُ كريمتا السلطان السابق جميعهنَّ حول خوان فضي قد سترتهُ الوان الطعام الكثيرة وهناك احدى الجواري الشركسيات اسمها مهري هانم من المقرَّبات للوالدة سلطانة

قامت بينهنَّ وقد انجزت انشاد نغم تركي كانت تعزف نغمهُ على قيثارة معها فاقبلت السيدات على اطراء صوتها وحالما انتهينَ من ذلك انسحبت مهري هانم من بينهنَّ الى الظل وقد رافقتها فتاة سوداء صديقة حميمة لها قائمة في حرم الوالدة سلطانة ونزعتا نقابيهما وجلستا على ربوة وافرجتا عن جسديهما جلبابيهما فشفتا عن جسد ناعم كانهما حواري الجنان باديات من الاحراش فتنفست مهري الصعداء وقالت لرفيقتها السوداء

— اجل انني تعيسة . آه ما أجمل السلطان وما اشد حبي لهُ . نعم احبهُ ولا اجسر ارفع نظري اليهِ لكنهُ متى جاءَ الى الحريم يخفق قلبي حتَّى اكاد لا استطيع ان اتنفس. ثم قالت لرفيقتها

" ان لكِ محبًّا يتزوجكِ ويتخذ لكِ بيتًا اما انا فماذا يكون نصيبي ؟ لقد طمحتُ بآمالي الى اسمى مني وتطاولتُ الى غير حدّي

قالت السوداء — ولكنكِ ترينهُ كل يوم فاغنمي

تلك الفرص واطرحي نفسك في طريقهِ

— انَّى لي ذلك ونحن جوار كثيرات في الحريم كلنا جميلات يختاروننا لهذه الغاية والسلطان لا يميّز واحدةً عن الاخرى فلأي شيء يهتم بي . وخفي عليها وجود منصتٍ يراقبها بعينين سوداوين وسمع حاد من وراء الاغصان فرأى جمالها وسمع كلامها

وكان عبد العزيز جالساً في احدى البنايات الخشبيةَّ الجميلة المسماة كشك وقد اوشك الشفق ان يتحول الى الليل وكان السلطان يعرف الاماكن الَّتي تتردد اليها السلطانات يتناولنَ فيها الطعام فترجل واخذ يسير حول تلك النواحي يرافقه خصي خاص ومن ورائهِ اثنين من العبيد السود . وفيما كانت الحسناء تغني وقف عبد العزيز كالمأخوذ بالطرب حتَّى اذا طوَّقت مهري جيد رفيقتها ولفظت لها كلمات حبهِ هاج صدر السلطان واضطرب ذلك السكون الخاص بهِ

وتأثر السلطان كثيراً فسأل الخصي من الَّتي تغني

اجاب هي احدى جواري الوالدة سلطانة فأمرهُ ان يأتيهُ بها لتطربهُ وكانت مهري اذ ذاك محاطة برفيقاتها يكللنَ رأسها بالازهار فلما أقبل الخصي صاح بهِ احداهنَّ ما الذي جاء بك الينا يا اوبون افندي اجلس واسمع انشاد مهري

قال اوبون اظنها تزيد احساناً عن بعدٍ وساذهب بها الى الغابة فتصغينَ لصوتها ولكنَّ الحكم

وهكذا خرج بها فهالها الانفراد وسألتهُ عن غايتهِ فقال ان السلطان يدعوك اليهِ فاطربيهِ ما استطعتِ وهي فرصة نادرة لكِ . فلما اشرفا على الكشك ووقع نظر السلطان عليها هالها الموقف وكادت ان تقع مغشياً عليها فسكن السلطان روعها وامر الخصي ان يهيّئ لها مجلساً فقعدت عليهِ في اضطراب عظيم ثم عادت فانتعشت بنظرة من السلطان احيت آمالها واندفعت تطرب وتغني غناء سحر فؤَادهُ فما انتهت حتَى البسها خاتماً كان في يدهِ . ولما اقبل الليل اذا بالباش قادين رئيسة الجواري لا تقف لمهري على اثر فاستشاطت غيظاً واخذت تجول في انحاء

القصر تسأَل عنها حَتَّى لقيها الخصي فانبأَها ان مهري في حضرة السلطان لا خوف عليها ولا هي تشكو شرًّا . وهكذا صارت الشركسيَّة سلطانة

امبراطورة فرنسا في الاستانة

في بيكلر بك استقبل السلطان عبد العزيز الامبراطورة اوجيني وكان القرن الذهبي والبوسفور في بهاء لا مثيل لهُ وهي المرة الاولى الَّتي زارت امبراطورة سلطان تركيا فخرج الناس افواجًا واستعدوا لاستقبالها حَتَّى ان قصر بيكلر بك تجدد فرشهُ والغرف الخاصة بجلالتها جعلت على نسق غرفها في قصر التويلري

فلما دخلت الباخرة المسماة (النسر) الى خليج بحر مرمرا اطلقت مدافع السلام . وكان السلطان على مقربةٍ من القصر ينتظرها في قايقهِ المذهب وقد لبس ثوب مارشال فرنساوي . وكان مرورها بين قوارب عثمانيَّة فيها موسيقى

اخذت تعزف نغم النشيد الفرنساوي "فلنسافر الى سوريا" وكان سفراء الدول قد اجتمعوا في قاعات القصر لاستقبال الامبراطورة فقادها السلطان واجلسها على العرش لاقتبال تهانئهم وبعد ان زارت والدة سلطانة والسلطانة الاولى والدة ابنهِ يوسف افندي عزّ الدين عادت الى قصر چيراغان ثم زارت السلطانة مهري الشركسيَّة فاستقبلتها وعليها ثوب وزينة تساوي ستة ملايين فرنك وترتب خدمها من مدخل الحريم الى قاعتها

ولما دعيت الامبراطورة الى تناول الطعام وضعوا مائدتين الاولى على النسق الافرنجي والثانية على النسق التركي فاختارت التركيَّة وجلس الحريم على المائدة الافرنجيَّة وشربنَ لاول مرة نخب الامبراطورة بكؤُوس الشمبانيا وكانت عقيلة ميران بك ترجمانة بين الامبراطورة والحريم اللواتي ابتهجنَ كثيراً عند ما اخذت جلالتها سيجارة وبدأَت تدخن وعند الساعة العاشرة شرَّف السلطان وبعد ان تبادل مع الامبراطورة الحديث التفت الى مهري والحريم وقال

"تنازلت الامبراطورة فأخبرتني انها وجدت النساء التركيات ارق" خلق الله وتقول ان اشعة عيونهن" تزيد على لمعان جواهرهن"" ثم احضروا الشربات والقهوة وانتهت السهرة بأن اخذ السلطان الامبراطورة الى قاربها

الثورة على عبد العزيز

بقي السلطان عبد العزيز عدة سنوات لا ينتبه الى مركزهِ الحرج ازاء استفحال مطالب تركيا الفتاة واستياء هذا الحزب من اسرافهِ ولما حاول مدحت باشا رئيس المصلحين تنبيههُ فصلهُ . ومات في هذه الازمة فؤاد باشا نخلفهُ محمود باشا الذي كان خادماً لروسيا في افكارهِ وازداد اسراف السلطان حتّى اثر على الثقة العموميّة واضنك الجيش واثقل كاهل الدولة وكان ينفق الاموال الطائلة مرضاة للسلطانة مهري هانم ونصحت لهُ والدتهُ ان ينفي جميع المصلحين الذين يؤلفون تركيًا الفتاة ففعل ولبث عبد العزيز لاتراهُ الرعيّة الاّ يوم الجمعة وانقلبت اطوارهُ وازداد

سمنهُ حَتَّى كاد لا يستطيع حراكاً وحاول الوزير محمود ان يسكن خاطر مولاهُ باخفاء كل شيء عن مسامعهِ فقال لهُ ذات يوم — ما بالك حزيناً وملكك سامٍ وروسيا ميّالة اليك والاستانة تزدهي وبيرا أُعيد بناؤُها واوربا واثقة بنا

اجاب السلطان— "انك تحاول تسكين خوفي ولكنني عارف ان جماعة المصلحين ضدي جميعاً وهم يودون ابن اخي مراد ومدحت باشا عدوي. قال محمود — "صدقني ان تركيّا الفتاة لا تزال الآن ضعيفة ويقتضي زمن طويل لتحقيق امالهم فلا تخف شرًّا من مدحت ما دمت انا وزيراً لكن اذا حملوك على فصلي لا اكون مسئولاً" وعقب ذلك مذبحة قنصلي فرنسا وبروسيا في سالو نيك وشدد السفراء في طلب معاقبة الفاعلين وبعد مضي بضعة ايام اذ كان يوم الجمعة اجتمع الوف من الحزب العمومي والسفطا عند مدخل طولمه بغجه ليقدموا عريضة وهم منتظرون ان يروا السلطان ذاهباً الى الجامع لكن خابت آمالهم ولم يخرج السلطان الى الصلاة فقد كان في قصرهِ يراقب الناس مِنْ

مجلس الحريم المغطى بالستاير وهو يرتجف خوفاً على حياتهِ فاستاء القوم وتفرقوا في بيرة وغلطة من الاحياء الاوربيةً يشترون من مخازنها كل سلاح موجود فيها فلم يبقوا آلةً جارحة لم يشتروها وحصل اضطراب عظيم وارسل بعض السفراء كل عزيز ونفيس لديهم الى مراكب دولهم الواقفة في الدردنيل وتضاعف عدد الحراس في طولمه بغجه ثم هجموا دفعة واحدة على القصر ينادون " نريد ان نرى السلطان " فاقبل عليهم ياورانهِ حسن الشركسي وهو شقيق مهري مرسلاً من قبل السلطان فقال

— ان السلطان مريض في حريمهِ ويسأَل رعيتهُ الامينة ان تجعلني واسطة لنقل مطالبها فكان الجواب

— لسنا نرضاك بل جئنا لنرى السلطان

— ولكن اذا كانت صحة السلطان لا تسمح لهُ بمقابلتكم فماذا ترغبون

— نرغب في الحال فصل الصدر الاعظم محمود وشيخ الاسلام

— سأطلع جلالتهُ على مطالبكم واعود اليكم باوامرهِ.

وهكذا دخل القصر

ثم عاد حسن فقال — ايها الافنديَّة قد تأثر جلالة السلطان بما ابديتموهُ من البراهين على ثقتكم بهِ وهو يأمركم ان تذهبوا حالاً الى الباب العالي ولا يلبث الفرمان الذي تطلبونهُ ان يرسل على اثركم الى السر عسكريَّة. وعلى الاثر استدعى عدد من الوزراء الجدد لعقد جلسة في طولمه بغجه بالرغم عن معارضة الحريم وخصوصاً الوالدة سلطانة الَّتي اصرت على وجوب عدم الاحتفاء بالمصلحين وخصوصاً عدم اجابة مطالبهم في فصل نسيب قريب نظير محمود باشا. واقبل الوزراء محمَّد رشدي باشا ورديف باشا وحسين عوني باشا على السلطان فوجدوهُ في اضطراب عظيم وقد جلس في كرسيهِ يقلب بين يديهِ سبحة من العنبر فوقفوا لديهِ موقف الاجلال والتعظيم الى ان قدم لهم الخدم كراسياً جلسوا عليها فقال السلطان

— ما هي اخبار الجيش

قال الصدر الاعظم

— مولاي أن جنودك اظهروا شجاعة عظيمة ولكن الهرسك ذات صخور وممرات وعرة فذهبوا فريسة اعداء غير منظورين

قال السلطان — باي النوائب جئتم إِلَيَّ الآن

قال الصدر — تعلم جلالتك حالة ماليتنا وقد ساء حال اسمنا المالي والتجارة تتلاشى والشقاء . . .

فقاطعهُ قائلاً — ذكَّرتني وما انا بناسٍ انني افقر الملوك فهل تنتظر ورود عوائد ايها الوزير

— نعم مولاي واهم عوائد المملكة

— اذًا لا تغفل عن ان تدفع لي فوائض الكوبون الّتي بيدي من مصرف المملكة وما كنت لاضع مثل ذلك المال لولا ان محمود باشا اكد لي انها تدفع لي بدون تأخير

فوقف رشدي باشا عن كرسيهِ وقال مولاي المال معين ليدفع الى جنودنا في الهرسك

— ولكنني احتاجهُ. قال الوزير اعرف ذلك ولكن



الجيش يضنيهِ الجوع والجرحى يحتاجون الى معالجة والمعونات لا تزال متأخرة على اثر الحاجة الى المال

قال عبد العزيز — هذه اعذار فارغة

قال الصدر — صدقني يا مولاي ان من الضروري سد حاجة الجيش في مثل هذه الازمة والاستياء شامل

ثم قال حسين عوني باشا — مولاي قد جئناك لغرض ضروري فالخطر ليس من الحرب على الحدود بل من الثورة في الداخل و٢٠ الفاً من المسلمين يملأون استامبول دماً اذا لم تستجب مطالبهم فوقف السلطان وقد استشاط غيظاً وقال

— اي شيء اعظم من هذه الجرأة

الاَّ ان رديف باشا ثبت جنانهُ واخرج ورقة طويلة رفعها الى السلطان وقال هذه التغييرات المطلوبة. فرأى فيها اسماء جميع اخصاء الوزير المفصول فقال

— أهذا كل ما تطلبون

قال رديف نعم مولاي. قال السلطان اذًا ارفض

طلبهم لاعلم رعيتي واجباتهم فلا يفصل من هؤلاء احد على الاطلاق

فانطرح الصدر على قدمي السلطان وقال — لكن لا بدَّ من ذلك يا مولاي فهؤلاء الرجال لا يمكن بقاؤهم في مراكزهم وفصلهم ضروري لبقاء الحكومة

قال السلطان — تكلم يا هذا ان مولاك يسمعك . ما شاء الله يا رديف متى تنقطع عن توجيه اوامرك اليَّ هل تظن انني احتمل هذا العصيان الى الابد

قال الوزير — عفوًا مولاي فانا نفعل هذا لصالح المملكة

قال السلطان — المملكة لي وانا وحدي القاضي الحر في امرها ولكن انت المسؤول وانتم وحدكم . هل سمع الناس يا هذا ان السلطان يخضع لاوامر العصاة اخرجوا ايها الخونة من حضرتي

ثم تقدَّم الى الامام واشار بيدهِ الى الباب فخرجوا ولهم حديث

سقوط عبد العزيز

وتعدَّدت اشاعات سقوط عبد العزيز وتولية مراد لكن لم تتألف عصبة لذلك مع ميل السفطة الى هذا الانقلاب وكانوا يعتبرون مراد افندي موافقاً لافكارهم وانهُ عصري المبادىء فلما طُرِد الوزراء كما تقدَّم ظهر ان لا سبيل الى حكومة مستقيمة — واليك الطريقة الَّتي اختاروها لحل المعضلة . كان شيخ الاسلام من المصلحين المشاهير فبعثوا اليهِ بالسؤالين الآتيين

" متى لم يعد السلطان قادرًا على الملك هل يجوز خلعهُ شرعاً . ومتى بدَّد الاموال واوجب فقر شعبهِ بملاهيهِ الذاتيَّة هل يجوز خلعهُ شرعاً . وكان الجواب كما يأْتي :

" بعونهِ تعالى في ٢٩ ايار سنة ١٢٩٣ . نعم يمكن ان يخلع السلطان اذا خرب بلادهُ باصرارهِ واسرافهِ . لان السلطان يجب ان يكون ابًا لرعيتهِ لا ظالمها سامحهُ الله انهُ العظيم الجبار كتبهُ الفقير اليهِ تعالى

خير الله

وكان مراد افندي في ذلك الحين مقيماً في جزيرة برنكيبو احدى جزائر الامراء من حسنات بحر مرمرا قرب الشاطئ الاسيوي على مسافة ساعة من اسكودار وكانت حياتهُ بسيطة جدًّا يقضي اوقاتهُ في زيارة جيرانهِ واكثرهم من الاروام وكان يحب الموسيقى واللغة الايطاليَّة فيقضي أوقاتهُ مع الاساتذة والاصحاب الذين كان يدهشهم لطفهُ ورقتهُ لكن لما استفحل امر تركيًّا الفتاة في استامبول وصار يخشى من قوتها نقلوا مراد افندي الى كشك قبيح مظلم قريب من مدفن اسكودار وحرموهُ من اساتذتهِ واصحابهِ وتركوهُ فريسة لاشتغال الفكر والمخاوف الَّتي لا بدَّ منها لكل من ترشح لولاية عهد تركيًّا فكانت حياتهُ تزداد شقاوة بازدياد قوة تركيا الفتاة

قلنا ان فتوى شيخ الاسلام صدرت في ٢٩ ايار سنة ١٨٧٦ فبعد ظهيرة ذلك اليوم كان مراد افندي يلعب مع احد الخصيان بالطاولة وكان مضطرب البال حتى لم يعرف كيف يدير حجارتهُ وكان موجهاً نظرهُ الى اثنين

من الخدم يدخنان في زاوية الغرفة كأنهُ يريد استجلاء الخفايا من وجهيهما وكانا من خارج القصر يعرفان كل الحوادث لكن الامر المشدد قضى بكتمان الاخبار عن مراد حَتَّى كان لا يعرف شيئًا عن الاستانة

ثم شعر بحركة غير عادية في الخارج بين ابواب توصد بعنف ووقع الاقدام على السلالم ثم سمع صوتًا من الخارج فاضطرب وسأَل عن السبب قالوا انهُ خصام بين العبيد والخدم قال مراد لكن أَلا يمكن ان اعرف ما هو هذا الخصام ؟ قالوا لك ذلك فان خيَّاط سموّكم يطلب مقابلتكم والاغوات الحراس يمنعونهُ قال مراد أَظنني سأَترك الاهتمام بثيابي لكن دعوهُ يدخل

الاَّ ان الخيَّاط الذي كان مستعجلاً دخل قبل صدور الاذن فنظر اليهِ مراد والتقى نظرهما فعرف ان الداخل عليهِ من اعز اصحابهِ واصدق انصارهِ . وبمزيد التحفظ أَخذ مراد من يدهِ مساطر القماش الَّتي اتى بها وتقدَّم الى النافذة كأنهُ يريد امعان النظر والحقيقة انهُ اراد

ان يقرأ ورقة مخبأة بين المساطر كان فيها هذه الكلمات

" غداً تكون السلطان "

الامضا محمد رشدي

صدر اعظم

واضطرب مراد كثيراً عند ما قرأ الخبر حتى استند على النافذة ثم اشار الى الخصيان باخلاء المكان وهمس في أذن زائرهِ قائلاً

— اي عزيزي صلاح الدين أراك هنا فما الذي جرى هل جاء وقت اطلاق سبيلي

— نعم يا مولاي وسيكون يوم غد يوم انتقام جميع احبائك

— وانت يا صلاح الدين قد قاسيت كثيراً من اجلي وبلغني ذلك عنك مع احتجابي هنا وانقطاع الاخبار عني

قال صلاح الدين

" الوقت أضيق من أن أفتكر بنفسي والدقائق ثمينة عوّض الله عليك اعوام رخاء عديدة بعد الشقاء الذي

قاسيتهُ" قال مراد بصوت خافت "والسلطان". اجاب "سيخلع وينفى" قال مراد

— كلاَّ لا ينفى وقبل كل شيء احرصوا على حياتهِ حرصكم على حياتي فان ملكي لن يلطخ اولهُ بالدم انني اغفر لهُ واصفح عن ظلمهِ لي واذكر انني غير ناقم عليهِ

هذه احدى الروايات وفي رواية أُخرى ان هذه الحادثة جرت في القصر وان حسين عوني باشا اختطف مراد افندي بمعونة اعوانهِ ونقلهُ الى السر عسكريَّة في فرقتين من الفرسان

وانقضى ذلك اليوم بمزيد السكينة ولم تظهر علامة لظلمات السياسة الَّتي كانت تملأ فضاء الملك الاَّ ان طي هذه السكينة فتحت ابواب الثورة وفيما كان السلطان يهتم في الانتقام مما حسبهُ اهانةً لديوانهِ اصدر الصدر الاعظم الاوامر السريَّة الى مركبي نقل كبيرين وجدا في القرن الذهبي ان توقد النار فيهما استعدادًا للسفر وارسل الى قبطان كلٍّ منهما أوامر سريَّة مختومة لا يفض ختمها الاَّ متى

اجتازوا ٢٠ ميلاً في عرض البحر ثم ان وزير الحربيَّة اصدر امرًا سريًّا الى رئيس الحرس السلطاني المعروف باخلاصهِ لعبد العزيز ان يسافر بجنودهِ في الحال على المركبين فاطاع وهو يظن انها أوامر السلطان وعند الساعة العاشرة مساء فتح جسر غلطة وسافرت المراكب ولم يعلم قباطينها انهم يقومون باول حركة في الدسيسة لخلع عبد العزيز وهم يجهلون. والرأي العام يذهب الى ان حكمة وشجاعة مدحت باشا كانا السبب في ترقي مراد الى العرش مدَّة قصيرة شهيرة ويصعب في مثل هذه الازمة ان تعرف حقيقة ما جرى لكن لا ريب انهُ في المجلس السري الذي عقد في السر عسكريَّة بعد مقابلة عبد العزيز في طولمه بغجه قد كان صوت مدحت باشا الذي اصدر الامر الى رصفائهِ الوزراء بالعمل ينادي في ذلك الموقف الرهيب

"ان الحزم يمنع سفك الدم فيجب ان نستعمل الحزم والعجلة والذين يتبعون مشوراتي يعلنوا ذلك " فارتفعت كل يد هناك فقال مدحت "اصغوا لما اقول هوذا المؤذن

يؤذن ساعة الصلاة فقبل ان يعلن بزوغ الفجر يجب ان لا يبقى عبد العزيز سلطاناً" وبالرغم عن طول انهماكهم في هذه الدسيسة لم يتمالك رصفاؤه التوقف والخوف فقال مدحت " الخطة صريحة عسرة ولكن عليها يتوقف نجاحنا وحياتنا ولكلٍّ منا خطة لا انكر انها عسرة يجب ان يقوم بها في هذه الثورة لتنقذ تركيا من ظالم" ثم أخذ يشرح لهم بتطويل آرائه ومقاصده لخلع عبد العزيز. وبعد نصف الليل دخل صلاح الدين بك ورديف باشا ثكنة طوبله بغجة بفرقة صغيرة من الجند. ولما رأى الضباط ثوب وزير الحربية اسرعوا إلى استقباله بالاكرام فوقف بينهم رديف باشا بمظهر الشجاعة الفائقة واوضح لهم امر المجلس الصادر الى الضابط المتولي الامر فلم يبدوا ممانعة لان وجود وزير الحرب بشخصه كفى لاقناعهم. وكان القائد العام نائماً لا يدري ان جنود الثائرين يتولون حراسة بابه وان ضباطه استبدلوا بسواهم من الذين أخذوا أوامرهم من الساري عسكر. وبعد دقائق قليلة اجتمعت في ساحة الثكنة الجنود التي

جاءَت مع رديف باشا وصلاح الدين من اسلامبول وقد خبأَ مسدس الطلقات في كمهِ وتبعهُ بعض الضباط باسلحتهم ففحص وجوه الجنود ليتاكد ان ليس بينهم خائن ثم اخرج مسدس الطلقات فجأَةً وصوبهُ اليهم وقال

انكم ترون هذا السلاح وقد اقسمتم الطاعة لنا فالموت نصيب كل من ينطق بكلمة واحدة ان الله ووطنكم يأْمرانكم بالصمت

ثم جرَّد رديف باشا سيفهُ وتقدَّم بعسكرهِ لجهة القصر حتَّى وصل الى الباب الذي يؤدي الى داخل فعلا صراخ الحارس حتَّى ملأَ القصر فصوب رديف باشا غدارتهُ الى صدرهِ واسكتهُ ثم وضع احد عساكرهِ حارساً مكانهُ وامر الاول بالانتظام مع فرقتهِ وهكذا فعل مع باقي الحراس حتَّى امتلك عسكرهُ جميع ابواب القصر. اما العساكر فكانوا يجهلون على ما يقال ان ما أُمروا بفعلهِ كان خيانة ضد السلطان بل ظنوا عند ما رأَوا وزير الحربيَّة في مقدمتهم انهم يطيعون اوامر عبد العزيز

وتقدَّم رديف باشا إلى الباب الذي يؤدي الى الحريم وبعد أن اصدر أوامرهُ فتح الباب بمفتاح كان معهُ ودخل وتبعهُ البعض من العسكر فاستيقظ لصوتهم بعض الخصيان ونادى احدهم من انتم وماذا تريدون . فاجابهُ صوت جهوري

— انا رديف باشا وزير الحربيَّة قد أتيت لاخابر السلطان بمسائل سياسيَّة مهمة فاذهب وقل لرئيس الخصيان ان يدخلني عليهِ. فقال الخصي " ولكن تعلم دولتك ان في ساعة كهذه يكون الجميع نياماً " فقال رديف " اذهب وافعل كما امرتك لان المسألة شديدة الاهميَّة " فارتعب الخصي الكلامهِ واطاع حالاً

وبعد مضي عشر دقائق ظهر رئيس الخصيان على الباب وقال — أَنت يا رديف باشا ماذا تقصد بايقاظك ايانا في منتصف الليل . والله اني افتكرت مرتين قبل ان انهض من فراشي . فقال رديف

— حسناً فعلت والاَّ لكنا ايقظناك رغماً عن ارادتك

فاصغَ لكلامي الآن . اذهب واخبر السلطان اني أُريد مواجهتهُ حالاً .قال الخصي " هل أَصاب دولتك جنون حتى تأْمرني أَن اوقظ جلالتهُ في مثل هذه الساعة ".قال رديف" اذهب وايقظهُ حالاً"ثم فتح الباب الخارجي واشار الى العسكر حول القصر وقال " انظر ايها الخصي اتفهم ما هذا ." فارتعد الخصي وارتجفت ركبتاهُ ثم اخذ ضوءًا ودار امام رديف باشا قائلاً"اتقصدون قتل جلالتهِ"فاجابهُ " اني لست خائناً "

ثم دخل مع عسكرهِ يتقدَّمهم الخصي وصعدوا للطابق الاول واجتازوا عدة غرف حتَّى وصلوا لغرفة عبد العزيز وعند ذلك قال الخصي" ارحمني ياسيدي فاني لا اتجاسر على الدخول"فلم يجبهُ رديف باشا بكلمة بل صوب غدارتهُ نحو صدرهِ وفي الحال فتح الخصي الباب وقال"على الاقل دعني انبه جلالتهُ لهذا فانهُ ليس وحده" ثم دخل لداخل وبعد بضع دقائق ظهر عبد العزيز على الباب بثياب الليل وملامح وجههِ تدل على الخوف والانزعاج وقال

— لماذا انت هنا يا رديف وماذا تريد.فاحنى رديف رأسهُ اعتبارًا وقال

— ان جلالتكم ارسلتم تستدعون الصدر الاعظم هذا النهار واذ لم يتمكن من المجيء لانشغالهِ بامور مهمة تتعلق بالمملكة جئت انا عوضاً عنهُ ". فقال عبد العزيز بعظمة

— اذا كان هذا قصدك فقط فكان يمكنك الانتظار الى الصباح. قال رديف

— لو كان قصدي الاعتذار عن الصدر الاعظم فقط لما تجاسرت وازعجت جلالتكم في مثل هذه الساعة ولكني اتيت لاجل امور هي اشد اهمية من هذه

— تكلم حالاً ولا توقفني هنا كل الليل.تكلم هل هذه دسيسة ضدي

— نعم لقد صدق ظن جلالتكم. قال عبد العزيز

— اذًا أنت احد وزرائي الذين عزلتهم قد عينت لتنبئني عن خيانة ضدّي . اجاب رديف

— " نعم قد أتيت لاخبر جلالتكم بذلك " فصرخ

عبد العزيز بصوت قوي ملأ اطراف القصر

— خيانة ؟ ممن . واين . وكيف كان ذلك اخبرني بصريح العبارة يارديف فان هذه ليست اول مرة طردتك من امام وجهي " فاجاب رديف بكل هدو وسكينة

— اني لن انسى ذلك ابدًا واذا كنتُ قد رجعت فلاجل ان اعلن لك ان ابن اخيك صار سلطانًا "فصاح عبد العزيز بملء الغيظ "ابن اخي صار سلطانًا " ثم اختطف الورقة من يد رديف باشا وأخذ يقرأُها ويداهُ ترتجفان ووجههُ اصفر مرتعد . وقال

— انكم قوم انذال أظننتم اني اخاف من وعيدكم وتهديدكم .أتجاسرتم ان تسألوني كي اتنازل عن الملك متى ابتدأت رعاياي ان لا تطيعني .فاجاب رديف بصوت مملوء من الحنق والغيظ

— كان ذلك عندما اسقطت كل حق لك بطاعتهم اياك . عند ما عزلتَ عن يد شيخ الاسلام .عندما انقطعت اوروبا عن ان تكون حليفة لك .عندما لم يعد الجيش يصغي لاوامرك

وعندما اعلنت تركيا ان مراد ابن اخيك سلطانها فاذا كنت تشك بصحة كلامي تطلع خارج قصرك ترى جيوشي قد احاطتهُ وترى عبيدك الامناء في قبضة يدي والبوارج كلها في ادارة رجالي فسلم نفسك لامر الشعب فقد حان الوقت لذلك

وحاول السلطان ان يعترض رديف باشا ويقطع كلامهُ اما رديف فقال

— مولاي أتوسل اليك حبًّا بذاتك ان لا تعارض أقل معارضة فان ذلك لا يأتيك بفائدة

واشار الى الضباط الذين تولوا حراسة الباب وفي يد كلٍّ منهم طبنجة

— فصاح السلطان هل تجسر ان توعز إليَّ بالخضوع لاوامر ابن اخي

قال رديف . مولاي يجب ان تفعل

— قال السلطان لكنني استغيث بمن ينجدني فقد بقي لي بعض الاعوان الامناء.وامير المؤمنين لا يمكنهُ

التسليم لوعيد خائن شقي وتهديده نظيرك

— قال رديف انبه جلالتك انك اذا رفعت صوتك تموت للحال

— قال وهل تقتلني ايها الشقي

— اجاب رديف اذا كان لا بدّ من ذلك فنعم

— قال السلطان اذًا لم يبقَ لي صديق

فصمت رديف وقال السلطان "اين اعواني وجنودي الأمناء"

— اجاب رديف "انهم سافروا في هذا الليل الى بحر مرمرا"

— السلطان آه انني سمعت بحركة البواخر مسافرة ولم افهم لذلك سبباً

— مولاي قد طال الوقت وهذا فائق ينتظر اوامر جلالتك على الرصيف والسلطان مراد في السر عسكريّة سوف يستولي على هذا المكان في الحال فاتوسل اليك ان تتبعني لئلاّ يحصل ما يسوء حصوله

— السلطان اذًا اتبعك. واستند على كتف رئيس الخصيان وقد استتر برداء ثخين ومشى بعض خطوات ثم وقف وهمس في اذن رديف باشا قائلاً

— هل تكون مسؤولاً بسلامة الحريم وخصوصاً السلطانة مهري (التي لم ينسها في هذا الموقف الحرج)

— فاجاب رديف نعم انا المسؤول

ثم ركب السلطان ورديف باشا القارب وسارا الى رصيف قصر سيراجليو وتلتهُ على الاثر السلطانة مهري ووالدتهُ وبقيَّة العبيد والحريم واقتضى لنقلهم جميعاً ٦٠ قارباً كبيرًا وكانت غرف القصر متهدمة على اثر الاحتراق لكن السلطان اقام في مكان هيأوهُ لهُ موقتاً

جلوس مراد

ولا يزال ٣٠ ايار سنة ١٨٧٦ مذكورًا عند الوف من الناس فما اشرقت الشمس على آكام اسيا حتّى اطلق مائة مدفع معلنة للعالم ان قد تولى العرش سلطان جديد وكان هذا الفوز فوزًا لم تهرق فيهِ الدماء وطافت الالوية بالقصر والباب العالي وبرج غلطة وازدانت الدوارع بالالوية وتناهت في الزينة واقبل السفراء والسفيرات والباشوات ونساؤهم وازدحمت الشوارع بجميع اصناف الاهالي ثم اطلقت المدافع تفيد الناس ان السلطان الجديد زايل السر عسكرية الى طولمه بغجه ووقفت الجنود على جانبي الطريق وعند الساعة الثالثة ظهرت العربة الملوكيَّة يجرها اربعة من جياد الخيل الانكليزيَّة الاصل وقد جلس فيها مراد وحدهُ في ثوب ازرق وعلى صدرهِ وسام المجيدي وهو يحيي الشعب وقد ظهرت دلائل انقلاب عجيب على وجههِ فان من رأى هذا السلطان وهو في السادسة والثلثين

من عمره جميل الوجه كبير العينين يشرق منهما نور الظفر لم يعرف انهُ هو نفسهُ كان ذاك الامير المسجون المحاط بالجواسيس الخائف كل ساعة على حياتهِ وكان حليقاً لا شعر في لحيتهِ الاَّ شاربيهِ الجميلين وتبع عربتهُ الفرسان والحرس والناس يهتفون "بادشاهمز چوق يشا" والموسيقى العسكريَّة تصدح بانغامها فمر في بيرا وغلطة الى باب طولمه بغجه العظيم وقد فتح لاستقبالهِ

ولما وصل السلطان مراد امام القصر عند الابواب المذهبة دنا منهُ بمزيد الاعتبار ضابط في عنفوان الشباب يلبس ثوب حراس عبد العزيز وهو حسن الشركسي الذي سيكون لهُ حديث مهم وقدَّم لجلالتهِ رسالة فما تمالك مراد الشعور بتأثر عظيم عند ما تناولها ولما كانت الجرائد يومئذٍ قد نشرت صورة الكتاب فنحن نوردهُ هنا وهذه صورتهُ

مولاي صاحب العظمة . اسمح لآخر رعاياك ان يكون أولهم في تهنئتك عند ابتداء ملكك السعيد وليس لي الاَّ رجاءٌ واحد أتوسل من جلالتكم اجابة سؤلي فيهِ

وهو ان تعفو عن حياتي وان تسمح لي ان أقضيها في قصر شيراغان الذي انشأتهُ جلالتك واسأل الله سبحانهُ وتعالى ان يتولى بحكمتهِ ادارة آراء جلالتك. ثم اذا ساغ لي ان أُقدم لك نصيحة فانني اتوسل اليك ان لا تثق ولا تعتمد ابدًا على جندك فانني ضحيت كل شيء لجنودي فخانوني وفي الختام اقبل مولاي دعائي ان تعيش عيشة طويلة وحياةً سعيدة ذلك دعاء عبدك المخلص

عبد العزيز

وعلى اثر وصول هذا الكتاب نقل عبد العزيز وحريمهُ في الحال الى كشك شيراغان لكن ما لبث السلطان المخلوع ان استرحم نقلهُ الى قصر بيكاربي القائم على شاطىء البوسفور الاسيوي حيث كما يذكر القارئ كان قد استقبل فيهِ الامبراطورة اوجيني واجيب طلبهُ للحال

آخر ايام عبد العزيز

ومضت على الحوادث السابقة خمسة ايام ففي يوم الاحد الاول من شهر حزيران (يونيو) رأى الناس عبد العزيز (الذي شاع انهُ يشكو من الارق الشديد) يمشي بقلق ذهاباً واياباً في القاعة الخاصة بهِ واضعاً يديهِ وراء ظهرهِ وكان قد انقطع عن الاكل الاَّ القليل منهُ مدَّة يومين وظهر انهُ ساقط في منتهى ظلمات اليأس وقد هزل جسمهُ ووجههُ وزال ما في عينيهِ من الزهو وكانت السلطانة والدة جالسة بالقرب منهُ على الديوان ومهري ايضاً في الغرفة لانها لم تفارقهُ دقيقة واحدة منذ خاموهُ وبعد ان تبادل معهما الحديث برهة سألهما الخروج ليبقى وحدهُ قائلاً انهُ يشعر بتعب وحاجة الى النوم فتأخرتا عن الخروج لكنهُ ازداد الحاحاً وقال

انني استلقي على الديوان واحاول ان انال راحةً قليلة

وفيما هما خارجتان استوقف مهري قائلاً

ارسلي لي مرآة والمقص العجمي لانني ارغب في تزيين لحيتي

وكانت هذه آخر عبارة لفظها ثم أوصد الباب الفاصل بين السلاملك والحريم

ولم يعرف حتى الآن حقيقة ما جرى بعدئذٍ فان اسمعيل بك (الذي كان يتولى الحراسة في زاوية الغرفة أو خارج الباب) كان اول من نبه الى الخطر فلما أقبلت الوالدة سلطانة والسلطانة وجدتا عبد العزيز ملقى على الديوان لا حراك بهِ والدم قد ستر جسمهُ ولا يزال يتدفق من أوردة ذراعيهِ ومعصميهِ وقدميهِ فحاول اسمعيل بك ان يوقف نزيف الدم عبثاً بمنديلهِ فان السلطان كان قد مات وفاضت روحهُ لتقف امام الخالق الديان وتحوّل وجههُ المصفر الى جهة كتفهِ والمقص ملقى الى جانبهِ ملطخاً بالدم وشعر لحيتهِ مقصوص حتى جذورهِ وعلا صراخ السلطانة واقبل الخدم والاعوان فلم يستطيعوا عملاً

وافاد اسمعيل بك ان السلطان كان قد تحوّل عنهُ

وقبل ان تمكن من انتقال المقص من يدهِ كان قد قطع أوردتهُ ثم تململ برهة وسقط سقوطاً لا نهوض بعده

هذه خلاصة قصة الموت ويقال انها القصة الحقيقية واذا فرضنا وجود العزم على قتلهِ فلا يحتمل ان يفتك بهِ على هذا النمط الفظيع ولا يحتمل ايضاً صحة ما حدث من ان بستانيًّا يتبرع بنفسهِ ويقول انهُ هو الذي قتلهُ فانما فعل ذلك ليجر الويل الى آخرين من الرجال العظام الذين خطر لارباب الامر التخلص منهم فاختاروا هذه الطريقة لاتهامهم

ان للاتراك خطة ممتازة وبراعة فريدة في اختيار طرق القتل مع حفظ الامر سرًّا مطويًّا. كذا يقال في بعض الروايات على انني لا أجزم بصحتها وارجو القارئ ان لا يصدر حكمهُ الآن بل ينتظر ريثما يرد تفصيل محاكمة مدحت باشا وسائر المتهمين وغير ذلك من التفاصيل التي ترد في حينها فيما يلي

على ان احد المؤرخين الانكليز يرتإي ان عبد

العزيز قتل نفسهُ بيدهِ واعتمد المؤرخ في زعمهِ على تقارير الطبيبين الانكليزيين الدكتور ديكسون طبيب السفارة الانكليزيَّة والدكتور ميلينجين وقد فحصا جثتهُ حيث وجدت والظاهر ان ابن محمود الكبير المملوء بالعنفوان والعظمة لم يستطع احتمال الاهانة الَّتي وجهها اليهِ رعاياهُ ولما كان قد ربي على العنفوان الشرقي لم يقدر ان يعترف بخطائهِ ولا ان يخضع لمطالب شعبهِ العادلة

والظاهر ان عبد العزيز حاول الاقتداء بابيهِ وهو محروم من ذكائه وقوتهِ الحاكمة فصار ظالمًا فما كان يعد فضيلة الشجاعة في الاب صار في الابن عنادًا وكأن حياة قاتل الانكشاريَّة كانت محروسة اما ولدهُ فمثل سائر الاحياء والغريب ان الاصلاحات الَّتي قام بها ساكن الجنان السلطان محمود اكسبتهُ اعتبار رعيتهِ حالة كون تعلق عبد العزيز بالتقليدات وابقاء القديم على قدمهِ كان السبب في سقوطهِ مع ان خطة الاول كانت اقل حظوة في اعين شعبهِ. بقي ان الفرق كائن في شخصيَّة السلطانين

وقد تقرر في اذهان الطبقة العليا من الاتراك ان عبد العزيز قتل اغتيالاً وتوجهت الظنون الى مدحت باشا واعوانهِ لان بقاء عبد العزيز في الحياة وعوده الى الملك يلحق بمدحت ضررًا عظيماً لكن لا ريب ايضاً في ان تقرير الدكتور دكسون طبيب السفارة الانكليزيَّة الذي فحص الجثة مع بعض اطباء الاتراك والاجانب افاد ان عبد العزيز مات منتحرًا الاَّ ان اكثر الاتراك لا يصدقون ولكن ما لنا ولهذا الآن فسيأتي الايضاح الجلي في ما يلي عند ذكر المحاكمة

موت مهري هانم

وبعد موت السلطان بعشرة ايام اعلن موت السلطانة مهري بعد ان ولدت غلاماً فان الاضطراب العظيم الذي اصابها على اثر موت زوجها ذهب بحياة هذه الفتاة الحسناء. كذا روت الخبر صحف تلك الايام. واحتفل بجنازتها في (يني جامع) وصنع نعشها من الخشب المصقول

مرصعاً باللؤلؤ مغطًى بالكشمير الثمين وعليهِ اكاليل من الورد الزاهي وسار امامهُ العلماء ينشدون الآيات القرآنيَّة ويلي النعش عدد لا يحصى من الباشاوات والاغاوات وكبار الرجال والخصيان يتبادلون حمل النعش وبين اولئك الرجال ضابط شاب في ملابس فرقة المدفعيَّة لم يغيّر موقفهُ طول الطريق وهو شقيقها حسن المعروف (بالشركسي) وكان قد اتصل الى مقام ياوران بمساعدة شقيقتهِ وكان في عنفوان شبابهِ اشتهر عنهُ انهُ امتاز في استعمال السلاح واطلاق الرصاص لا يخطئ مرَّة في الالف وكان من اجود فرسان الزمان سبق لهُ ان اصاب بيضة موضوعة في طريقهِ وهو يركض بجوادهِ في منتهى سيرهِ وهو خفيف الجسم احمر شعر اللحية لا يقل جمالاً عن اختهِ وقد اظهر من الحزن ما استلفت اليهِ نظر الجمهور

ثم لما وضع النعش على أرض المدفن الابوبي بين التلال المكسوة بالاخضرار يعترضها وادي المياه الحلوة الاوربيَّة وارتفع هتاف العلماء وحملة القرآن مدَّ حسن

الشركسي المذكور يدهُ الى النعش لآخر مرة بجنو الاخاء حتَّى اذا وارى التراب جسد مهري قوي على شقيقها الحزن فاتكأَ على شجرة والذين ابصروهُ في تلك الساعة ذكروا حزنهُ الذي ظهرت آثارهُ في الحوادث الَّتي تلي

حسن الشركسي وهجومهُ على الوزراء

وبسقوط عبد العزيز وموت مهري سقط حسن الشركسي من مكانتهِ ولكنهُ بقي مجاهرًا بالانحياز لصهرهِ حتَّى ان وزير الحربيَّة اوجس خيفةً منهُ وحسبهُ يعمل على الثورة والقلق فادعى انهُ يرسلهُ الى بغداد بمأموريَّة وهو شرف عظيم فابى حسن الرضى بها ولهذا القي القبض عليهِ ثم أُطلق سراحهُ بعد ان أُخذت عليهِ المواثيق وصار على وشك الرحيل واول ما فعلهُ انهُ ركب زورقًا في البوسفور الى اسكودار حيثما كان منزل وزير الحرب في الداخليَّة وهناك علم ان الوزير ذهب الى استانبول ليحضر جلسة عقدها الوزراء في بيت مدحت باشا الذي كان

على وشك ان يصير الصدر الاعظم فلما علم حسن ذلك اسرع في الحال الى المدينة وكان الليل قد سدل جلبابهُ فتدجج بالسلاح الكامل واستتر بثوبهِ العسكري الكبير وسار في شوارع استانبول المظلمة حتَّى وصل الى كشك مدحت باشا الزاهي بالانوار

وكان المجلس قد التأم مؤلفاً من الصدر الاعظم وناظر الحربيَّة وناظر البحريَّة ومدحت باشا ورئيس المجلس وراشد باشا ناظر الخارجيَّة وحالت باشا كل هؤُلاء النظار اجتمعوا في قاعة واسعة في الطبقة الاولى وكان في الطبقة الارضيَّة قد تجمهر اغواتهم وضباطهم وخدمهم يشربون القهوة ويدخنون وقد تألف منهم جمهور غفير لان كبار الاتراك لا تتحرك ركابهم الاَّ بذيول من الخدم طويلة جدًّا . ولما كان الجميع يعرفون حسن الشركسي انهُ شقيق السلطانة وانهُ محبوب في البلاط دخل بغير مانع واقام بين الحشم لا يسيئون الظن بهِ وزعم انهُ قادم لمقابلة حسين عوني باشا حتَّى اذا انتصف الليل انسلَّ خفية فصعد الى الطبقة الثانية ومرَّ

بابواب القاعات الكثيرة حتى وصل الى القاعة الَّتي اجتمع بها النظار وهناك تولى الحراسة سليم اغا الخادم الامين والرفيق المأمون لمدحت باشا فلما أَشرف حسن استقبلهُ سليم اغا باكرام وقال لهُ ما الذي جاء بك الى هنا قال حسن — انني راحل الى بغداد غدًا ولي كلام اقولهُ لناظر الحربيَّة

اجاب سليم اغا — لكن دولتهُ منهمك داخلاً في المجلس ومن يعرف متى ينتهون من جلستهم

قال حسن — ولكن يجب ان أراهُ ولا بدَّ من ذلك ولو اقمت هنا بانتظارهِ عدَّة ساعات

قال سليم اغا — اذًا انتظرني هنا ريثما انزل الى الطبقة الاولى واستشير ياوران دولتهِ توفيق بك واسأَلهُ عن طريقة لتسهيل اجتماعك بالناظر

وما غاب سليم آغا عن العيان حتَّى اقترب حسن من الباب ورفع الستار ونظر الى الداخل وكان النظار حول منضدة مستطيلة وهناك حسين عوني باشا بلحية بيضاء

ونظر امامهُ الصدر الاعظم ومدحت باشا وسائر النظار وظهورهم الى جهة الباب ففي اقل من طرفة عين هجم حسن عليهم واطلق الرصاص على حسين عوني باشا صارخاً "لا تتحرك يا حسين عوني" وسقط الناظر جريحاً وقد اصابتهُ الرصاصة في صدرهِ وفيما هو يحاول الدفاع عن نفسهِ ارتفع من النظار صراخ الخوف والاضطراب الاَّ ان حسن لم يهتم بصراخهم بل اطبق على حسين عوني واجهز عليهِ بيطقانهِ الماضي يبتر جسدهُ بالطعنات المتلاحقة وهو ملقى على الارض

وفيما كان حسن يفتك بحسين عوني اغتنم مدحت باشا تلك الفرصة وهرول الى الباب الكائن في آخر القاعة المؤدي الى غرف الحريم الداخلية وتبعهُ على الاثر بقية الوزراء الاَّ راشد باشا الذي لبث على كرسيهِ كانهُ مقيد بسلاسل حديدية لا يستطيع معها حراكاً واحمد باشا الذي كان اثبت جأشاً من الجميع فانهُ هجم على القاتل وامسكهُ بذراعين من حديد على خصرهِ ضامّاً كلتا ذراعيهِ حتى لا

يمكنهُ مِنْ استعمال يديهِ الاَّ ان القاتل تمكن من اخراج يدهِ اليمنى بعنف وطعن احمد باشا عدَّة طعنات فاركن الباشا الى الفرار وتمكن من ذلك ولما رأى حسن ان الوزراء تخلصوا منهُ هاجهُ الغضب واستولى عليهِ جنون عظيم وقوي فيهِ الميل الى سفك الدم فاستأنف الكرة على وزير الحرب التعيس الذي بقي فيهِ بعض الحياة واخذ يطعنهُ بالخنجر طعنات متوالية ثم قطع عنقهُ ذبحاً ولما انتهى من هذا العمل أدار نظرهُ فرأى راشد باشا لا يزال على كرسيهِ وقد استولى عليهِ الخوف الى حدّ انهُ لم يستطع ان يزايل المكان فاطلق عليهِ الرصاص واصابهُ في رأسهِ فكانت القاضية وذهب شهيد الخوف ولما لم يبقَ في القاعة من يفتك بهِ هجم الى الباب الذي فرَّ منهُ الوزراء وكانوا قد اوصدوهُ وراءهم فحاول كسرهُ بيديهِ صارخاً

لا بد لي من قتل وزير البحريَّة افتحوا الباب وانت ايها الصدر الاعظم سلمني وزير البحريَّة ولا يصيبك مني شر

فاجابهُ الصدر الاعظم من الداخل بصوت المتأسف

" دع هذا الآن يا ولدي فليس هذا وقتهُ وانت في اضطراب وهياج لا يمكن معهما اقناعك

فاستشاط حسن غيظاً واطلق الرصاص على الباب ولما لم يدرك غايتهُ انقلب الى اثاث القاعة فمزّق كل شيء هناك بيديهِ واسنانهِ كالوحش الضاري ثم اشعل النار في اطراف الستائر وحطم الزجاج والمصابيح عن آخرها

وبينما كانت هذه الفظائع جارية على ماذكرنا كان مدحت باشا قد استعان بسدس الطلقات وتمكن من النزول سالماً الى الطبقة الارضيَّة من السراي من طريق خفي وهناك أغرى ياورانهِ ان يصعدا الى القاعة لالقاء القبض على حسن فاطاعا الامر ولكن حالما دخلا القاعة سقطا على الارض جريحين برصاص حسن ويدهِ الصائبة وما لبث ان حضر الجند من المراكز المجاورة فالقوا القبض عليهِ بعد ان قتل احد ضباط البوليس وبعض انفار الضابطة ورغب الجنود ان يفتكوا بهِ للحال لولا ان مدحت باشا منعهم عن ذلك رغبةً منهُ في محاكمتهِ

وفي اليوم الثاني حاكموهُ وحكم عليهِ بالاعدام فاعدموهُ شنقاً على شجرة في ساحة واسعة امام السر عسكريَّة بحضور عدد غفير من الشريفات التركيَّات اللواتي رغبنَ في حضور هذا المشهد

فصل معترض

ماذا جرى في دمشق

قبل ان أذكر تتمة ما جرى بعد الذي ختمت بهِ الفصل الاخير من هذا التاريخ اذكر بعض ما جرى في دمشق الشام من الحوادث المهمة الَّتي كانت السبب في فصل مدحت باشا وهي الخطوة الاولى في سبيل القاء القبض عليهِ ومحاكمتهُ الَّتي سيأتي تفصيلها

لما تولى مدحت باشا ولاية سوريا قبل ان انفصلت عنها بيروت كان متصرف لبنان يومئذٍ دولتلو رستم باشا فاراد مدحت باشا ان يقوم في سوريا بما عجز عنهُ في الاستانة واحبَّ ان يعرف اذا كان لاهالي سوريا

استعداد للثورة ضد الحكومة التركيَّة حتَّى اذا وجد منهم الميل الى ذلك عمد الى الاستقلال فيجعل سوريا نظير مصر ويكون هو الحاكم عليها واختار وسيلة الى ذلك ان يجمع بعض الرجال وخصوصاً بعض اخصائهِ منهم احمد مهدي افندي الايوبي وحسن فائز افندي (وهو الذي عرفتهُ في بيروت اذ تولى مأموريَّة مكتوبجي الولاية) وهما من اخصائهِ وانضمَّ بواسطتهما بعض الشبَّان الاذكياء الذين لا اذكر اسماؤهم هنا بموجب طلبهم فانهم لما علموا انني انشر هذا التاريخ بعثوا اليَّ يطلبون عدم نشر اسمائهم وانا أُجيب طلبهم لان غايتي سرد الحوادث لا بيان الاسماء . وعمد الافراد الى تأليف جمعيَّة غايتها نشر اعلانات وقصد بواسطتها ان يختبر ميل الاهالي الى ما يريدهُ مدحت باشا

ففي صبيحة ذات يوم انتبه الناس من رقادهم واذا بالجنود في بيروت ودمشق قد تفرقوا في كل مكان قبل أن أشرقت الشمس وكلهم عيون وحيثما رأوا ورقة ملصوقة على الكنائس والجوامع مزقوها وذلك لان تلك الورقة

كانت القصيدة السينيّة الشهيرة وقد نشروها يومئذٍ وعليها كلمة (الموت) ومن حولها سيفان وهذه صورتها بحروفها

دع مجلس الغيد الاوانس وهوى لواحظها النواعس
وأسلُ الكؤوس يديرها رشأٌ كغصن البان مائس
ودع التنعم بالمطاعم — والمشارب والملابس
اي النعيم لمن يبيت — على بساط الذل جالس
ولمن تراهُ بائساً ابدًا لذيل الترك بائس
ولمن ازمتهُ بكف عداهُ — يظلم وهو آئس
ولمن غدا في الرق ليس — يفوتهُ الاَّ المناخس
ولمن تباع حقوقهُ ودماؤهُ بيع الخسائس
ولمن يرى أوطانهُ خربًا واطلالاً دوارس
كسيت شحوب الثاكلات — وكنَّ قبلاً كالعرائس
عج بي فديتك نادبًا ما بين ارسمها الطوامس
واستنطق الآثار عما كان في تلك البسابس
من عزةٍ كانت تذل — لها الجبابرة الاشاوس
وكتائبٍ كانت تهاب — لقاءَ سطوتها المتارس

ومعاقل كانت تعزز – بالطلائع والمحارس
ومدائن غناء قد كانت تحف بها الفرادس
أين المتاجر والمكاتب – والصنائع والمدارس
بل اين هاتيك المروج – بها المزارع والمغارس
بل أين هاتيك الالوف – بها فسيح البر آنس
هلكوا فلست ترى سوى قفر تثور بها الهواجس
بيدٍ صوامت ليس يسمع – في مداها صوت نابس
الاَّ رياح الجو تكسح – وجهها كسح المكانس
امست خرائب لا ترى الاَّ بابصار نواكس
ضحكت زماناً ثم عادت – وهي كالحة عوابس
غضبت على الانسان واتخذت – عليها الوحش حارس
فاذا اتاها الانس راح – يدوسها دوس المخالس
هذي منازل من مضى من قومنا الصيد القناعس
دُرست كما درسوا وقد ذهب النفيس مع المنافس
ماذا نؤمل بعدهم الاَّ مقارعة الفوارس
فاليكم يا قوم واطرحوا – الموالس والمدالس

وتشبهوا بفعال غيركم — من القوم الاحامس

بعصائب انفوا فجادوا بالنفوس وبالنفائس

هبت طلائعهم يليها كل صنديدٍ ممارس

تركوا جموع الترك تعصف — فوقها النكب النوامس

ملأوا البطاح بهم فداس — على الجماجم كل دائس

وخذوا لانفسكم مثال — اولئك القوم المداعس

فالترك قوم لا يفوز — لديهم الاَّ المشاكس

او لستمُ العرب الكرام — ومن هم الشمُّ المعاطس

فاستوقدوا لقتالهم نارًا تروّع كل قابس

وعليهم اتحدوا فكلكمُ — لكلكمُ مجانس

ودعوا مقال ذوي الشقاق — من [illegible]

ما هم رجال الله فيكم بل هم القوم الابالس

يمشون بين ظهوركم تحت الطيالس والاطالس

[illegible] تحت [illegible]

[illegible]

دبّت عقاربهم اليكم — بالمفاسد والدسائس

في كل يوم بينكم يلقي التعصب حرب داحس
يلقون بينكم التباغض — والعداوة والوساوس
نثروا اتحادكم كما نثرت من النخل الكبائس
ساد الفساد بهم — فساد الترك فيه بلا معاكس
قومٌ لقد حكموا بكم حكم الجوارح بالفرائس
وعدت عوادي الدهر تعر — فكم بانياب نواعس
كم تأملون صلاحهم ولهم فساد الطبع مائس
ويغركم برق المنى جهلاً وليل اليأس دامس
أَو ما ترون الحكم في ايدي المصادر والمماكس
وعلى الرشى والزور قد شادوا المحاكم والمجالس
والحق اصبح عند من الف الخلاعة والخلابس
عمت قبائحهم فاضحت لا تحيق بها الفهارس
حالٌ بها طاب التبسمْ — للوغى والموت عابس
وحلا بها سفك الدماء — فسفكها للجور حابس
برَح الخفاء ومَنْ يَعِشْ يرَ ما تشيبُ لهُ القوانس

وكان لانتشارهذه القيصدة رنة في البلاد وارسلت

التلغرافات الى الاستانة وازداد عدد البوليس السري والقت الحكومة القبض على كثيرين من الشبان واتهمت غيرهم من الشعراء الذين لا نذكر اسماؤهم

وخلاصة ما يقال ان تركيا علمت من هذه القصيدة ان وراء الأكمة ما وراءها وهي لم يسكن خاطرها ولا امنت شر الثورة من ذلك الحين ثم ظهرت عدة اعلانات غير هذه منها القصيدة التي مطلعها

يادولة الترك اتركي عنكِ العناد وبادري الاصلاحا

واصبحت الحكومة في قلق عظيم نريد بالحكومة رجال الاستانة وافراد البوليس في دمشق. اما مدحت باشا الوالي فلا نظنهُ كان في قلق لمعرفة الفاعلين بل نشأ اضطرابهُ عن انتظار العامل ليأخذ اجرتهُ وهو بين الشك واليقين فكانت اوامرهُ تصدر مشددة الى المأمورين ان يضيقوا على الجمعيات السريّة ولكن روحهُ الحيّة كانت تنفخ فيهم نار الحياة

القصيدة الحائية

قلنا ان الحكومة اهتمت كثيرًا للوقوف على ناظم تلك القصيدة السينية وظهر لها ان وراء الاكمة ما وراءها وان جمعيةً مهمة تقوم بهذه الاعمال وبدأ رجال البوليس يطوفون في كل مكان وزمان واذا باعلان آخر قد انتشر ومن جملتهِ ابيات مطلعها

يادولة الترك اتركي عنكِ   العناد وباشري الاصلاحا
او لا فدونكِ ثورةً تفني   الجسوم وتخطف الارواحا
ماشمت من حسن الادارة بينكم   الاَّ المدير لامرد اقداحا

ومنها

المال دينك كيف شئت سلبتهُ   وال.... ربك عشوة وصباحا
فعليهم فعليهم فعليهم   يا عرب شنوا غارةً ملحاحا

القصيدة الرائيَّة

وفي هذا المقام انقل للقارىء القصيدة الرائيَّة الَّتي نشرتها في عدد ٢٥ من جريدتي المشير وهي من موضوع القصائد السابقة

تفيير سوريَّا

يا اهل سوريَّا القساور — من كل مفخورٍ وفاخر
افترتضون صغارة — لم يرضها في الناس صاغر
عهدي بكم قوماً يذلّ — لديهم الزمن المكابر
من كل ذي فكر يدرُّ — بما تعاب بهِ الجواهر
من كل ذي قلم يصرُّ — اسى على تلك الصرائر
من كل ذي قلبٍ يسرُّ — لاهلهِ خير السرائر
من كل ذي همم تجرُّ — الى الهوان اخا الجرائر
من كل ذي خطبٍ تخرُّ — لها الرجال لدى المنابر
من كل ندب شاعر — بكلامهِ الجلمود شاعر
وبكم عشائر كلها — والله من خير العشائر

فعلامَ انتم بائعون — المجد في سوق الخسائر
والامَ انتم هاضمون — بفعلكم كرم العناصر
افمثل أعناق الاكابر — تختشي نير الاصاغر
افمثل اعضاد البلاد — تخاف مصفرّ المشافر
ذاك الاكول لمعدن صلبٍ وان يك من نشادر
ماتت حقوقكم وفي احشائهِ غدت المقابر
أتقرّبون لهُ قرابينا — وذو الملكوت ناظر
ما عوّدت اجدادكم في ما مضى حمل المباخر
كلاّ ولا عطفت اعنتهم — عن العز المحاقر
كلاّ ولا امتدت رقابهمُ الى غير المفاخر
ايامهم كانت بهم تزدان غرّاناً سوافر
ظعنوا ولكن ذكرهم حيٌّ ومثل المسك ذافر
لا غروَ ان شقت لدن ذكراهم كل المرائر
ما عرّضوا الوطن العزيز بما توخوا للمخاطر
لم يجعلوا الرتب الخطيرة مثلكم رهن المتاجر
فتصيروهم يا بني وطني بعزم غير فاتر

أفلم يكُ لهم خوا طر مثلما لكم خواطر
انتم فروعهم وما فرعٌ لغير الاصل صائر
اتقون أنَّ هواءكم كهوائهم لا ريب عاطر
ومياههم كمياهكم كانت تسيل من المفاجر
وسماؤهم كسمائكم شرع تضيء بها الزواهر
ان قلتمُ انقلب الزما ن فما بدا لكم معاذر
فالدهر دهرٌ للاوا ئل مثلما هو للأواخر
لكنما انقلب البنو ن فعزمهم ذا اليوم خائر
فالفرق بين الاولي ن وبينكم كالصبح ظاهر
لا تفكروا اني احضكم — على حمل البواتر
فعدالة السلطان مو لانا تكسر كل باتر
وتدقُّ عزمتهُ الرقا ب وتستثار بكل ثائر
أفما علمتم أنهُ للحق غواث وناصر
فاشكوا لهُ الحيف الثقيل — ولا تبالوا بالزواجر
فهو الموازر من شكا هُ والمعاقب كل وازر
ولدى التظلم عندهُ سيَّان مأمور وآمر

هو والحقيقة مطمحٌ — في كل آنٍ للنواظر
الفخر لا يلفى بعظمٍ — في رغام الارض ناخر
لكنهُ يلفى بعزمٍ — في سماء المجد طائر
هذا المشير لخدمة الا — وطان والمظلوم حاضر
واليكم يا ناظمون — بشدّ راحلتي اباكر
ابغي مغادرة التشبب — في مضفرة الغدائر
وقلاكم الرشأ الغرير — وكل طائفة الغرائر
وتسابقوا لمديح من لنجاة موطنهِ يبادر
واليكم مني السلام — مع الزعازع والصراصر
وهنا أوائل قافياتٍ — لا يكون لها أواخر

القصيدة البائيَّة

ومن جملة القصائد قصيدة بائيَّة من نظم احد مشايخ المسلمين الاعلام لم أقف عليها بتمامها وهي

تنبهوا واستفيقوا أيها العربُ
فقد طمى الخطب حتَّى غاصت الركبُ

فيمَ التعلل بالآمال تخدعكم وانتمُ بين راحات الفلا سلبُ
لا دولة لكمُ يشتدُّ ازركمُ بها ولا ناصرٌ للخطب ينتدبُ
وليس من حرمةٍ او رحمةٍ لكمُ
تحنو عليكم اذا عضتكمُ النوبُ
اقداركم في عيون الترك نازلة
وحقكم بين ايدي الترك مغتصبُ
فليس يدرى لكم شأن ولا شرف
ولا وجودٌ ولا اسمٌ ولا لقبُ
فيا اقومي وما قومي سوى عربٍ
ولن يضيّع فيهم ذلك النسبُ

الى ان يقول

سنطلبنّ بحدّ السيف مأربنا فلن يخيب لنا في جنبهِ الاربُ
ونتركنّ علوج الترك تندب ما
قد قدّمتهُ أياديها وتنتحبُ
ومن يعش يرَ والايّام مقبلة
يلوح للمرء في احداثها العجبُ

القصيدة الطرابلسيّة

وفي هذا المقام أذكر القصيدة الطرابلسيّة الشهيرة الّتي نشرتها في عدد ٣٠ من جريدتي المشير لاحد مشاهير العلماء الاعلام من سلالة النبي الكريم كما يظهر من ابيات الفخر الّتي ختم بها قصيدتهُ قال

اعرني طرف زرقاء اليمامه — لابصر ما ورا هذي الغمامه
تكاثف عتمها طولاً وعرضاً — كان الليل قد أرخى ظلامه
فلما أن بصرناها رأينا — هنالك هيكلاً فظ الجسامه
علمنا أن شيطاناً مريدًا — اتانا قاضياً يبدي احتكامه
اتى متلبساً برداء فقر — ينفض عن جوانبهِ قتامه
فاضحى يستدين وليس يوفي — وان طالبتهُ نقبض خصامه
ومن أدهى المصائب ان تمادى — بجنتهِ ويحسبها صرامه
ويوهمنا العدالة وهو منها — بريءٌ بل عدو الاستقامه
فلا يدري بشرع او نظام — فليت يد البلا نثرت نظامه

فكم القى دعاوٍ في مهاوٍ ... غطست وراءها تسعين قامه
فلم أسمع لها الا انينا ... تقول اصبر فموعدنا القيامه
يريك بأول الامر التزاما ... لحاجتك التي ترجو التزامه
ومذ تملا لهُ كفّا وجوفا ... وتشفي لا شفى المولى أُوامه
يفيك الوعد قولا ليس فعلا ... وآخر قولهِ ينسي كلامه
وان فكرتهُ بالامر أرغى ... وازبد واستحقيت انتقامه
وقد تستعبد الاطماع حرّا ... فكيف بناكب شدّت حزامه
اذا نهق الحمار على عليق ... فلا تحسبهُ اذّن للامامه
فقل لجنابهِ عني حديثا ... رواهُ عن النديم ابي دلامه
. . . . مه

الى ان يقول

على اني فتًى سيّان عندي ... زئير الاسد او شدو الحمامه
وان أحببت معرفتي فاني ... انا ابن جلا وقد وضع العمامه
وقومي من بنوا فوق الثريا ... بيوتاً علّى لها الزهرا دعامه
وداسوا هامة الافلاك عزّا ... بمن عزّت بموطنهِ تهامه
اجاويدٍ تسود على ايادٍ ... يقبل نعلها كعب ابن مامه

يفرّق طفلهم شمل العوادي ولم يبلغ من الدنيا فطامه
يرنح للندى عطف ارتياح وما احلى لدى الهيجا اقتحامه
اذا ما شاء يعبث بالثريا تناولها على طرف الثمامه
وشيمتنا التواضع عن علاء بهِ ثغر العلا يبدي ابتسامه
فانّي يبلغ العادي ورائي الى غرضٍ اعدّ له سهامه
وحبل الله معتصمي وحاشا يخيب فتًى ادام بهِ اعتصامه
ومثلي لا يروم بدار دنيا سوى ان يحسن المولى ختامه

حادثة في دمشق الشام

امّا كيفيّة وقوفي على هذه الحادثة فكما يأتي :

في عام ١٨٨٧ ذهبت لاول مرّةٍ الى دمشق واقمتُ فيها نحو ثلاثة اشهر عرفت في غضونها عائلة من الاوساط مؤلفة من ارملة وابنتين لها في سن الصبا وقد لبسنَ ثياب السواد حدادا وعلمت من الارملة ان وحيدها مات في ريعان الشباب وكان من الشبان المتهذبين ولهُ سمعة حسنة وعلاقة مهمة مع أولياء الامر ففي ذات يوم زرتُ

تلك العائلة فلم تكن الابنتان هناك وكانت والدتهنّ الارملة في شغل شاغل فاقمت برهة لاستريح في الغرفة الداخليّة وفيما انا الهو بالتفكر اذ أصابت رجلي شيئاً تحت المجلس الذي كنت عليهِ فرفعت الستار واذا هناك صندوقة ملؤها اوراق قديمة ودفاتر صغيرة فتناولتُ منها دفترًا ولم اقرأْ من الدفتر الاَّ بضعة اسطر حتى صرت ارتجف واسأَل الله ان لا تحضر الابنة وان لا ينتهي شغل الوالدة لانني احببت الانفراد بذلك الدفتر الصغير لاستوعب ما فيهِ من الامر الكبير وحدثتني نفسي ان أسرقهُ لكنني عدلت فنسخت منهُ بضعة سطور وما انهيتها حتى سمعت وقع اقدام فأَرجعتهُ الى مكانهِ ودخلت الفتاة الكبيرة فسأَلتها عما في الصندوق قالت وقد تورَّد خدها

انها يا سيدي أَوراق المرحوم اخي لم نطالع عليها منذ وفاتهِ لان النظر اليها يجدّد احزاننا ولم نمزقها لان والدتي تحب ان لا تذهب ورقة من آثار المرحوم وهكذا بقي هذا الصندوق في مكانهِ منذ وفاة أَخي

فنصحت لها ان تمزق ما فيهِ وتحرقهُ وانبأتها ان الاوراق المذكورة تتضمن الاخبار والاسرار التي لو وقفت عليها الحكومة ما ابقت من ينفخ بنار والحقتم الضرر بغيركم من الرجال لان تلك الاوراق تتضمن تقارير واخبار جمعيةٍ سريةٍ كانت في دمشق على عهد مدحت باشا

وهكذا ذهبت تلك الآثار التاريخيةُ ولم يبقَ منها الاَّ القليل الذي ادونهُ في هذا التاريخ . وما يأتي مع القصيدة السينيةِ الشهيرة هو كل ما انتشر مطبوعاً من آثار تلك الحركة العظيمة. قال الشاب في مذكرتهِ ما مؤداهُ :

اول امس عقدت جمعيتنا جلسة أولى في منزل احمد م افندي الا . . . (وهو المعروف انهُ كان من اخصاء مدحت باشا ورفيقهُ حسن فائز افندي الجابي الذي كان تولى مراقبة جرائد بيروت من اعوام) وقررت ان يعهد اليَّ امر نشر الاعلانات وأخذت عليَّ العهود والمواثيق المنصوص عليها في مادتي ١٠ و١٥ من قانون الجمعيةِ الاساسي واهمها ان اقسم اعظم الايمان انني اقتل نفسي

حالما يوشك البوليس القبض عليَّ بينما انا الصق الاعلانات خوفاً من ان ضعف الطبيعة البشريَّة يحملني على افشاء الاسرار متى صرت في قبضة ايديهم فتعرف اسماء الاعضاء

وفي المساء نحو الساعة العاشرة افرنجيَّة اخذت الاعلانات واسفنجة ووضعت في جيبي مسدس الطلقات وخرجت الى الشوارع اترصد سكونها وخلوها من الناس وكنت الصق الاعلانات في كل مكان ممكن الانفراد فيهِ وبقيت على هذه الحال إلَى الساعة الرابعة بعد نصف الليل ولم يبقَ معي الاَّ نسخة واحدة فجلست في دكان العصرونيَّة قرب باب البريد اتناول شيئاً منعشاً ثم اسرعت الى العطفة الكائنة بين العصرونيَّة والجامع الاموي وعلقت الاعلان الاخير وما فرغت من ذلك حتى رأيت البوليس فوضعت يدي في جيبي احترازاً وتقدَّم اليَّ احدهم وقال ماذا تفعل هنا قلت انني ذهبت لاودع ي . . افنديا٠

قال وكيف عدت الآن وهل كنت وحدك من المودّعين قلت انما رجعت لانني انتظرت مدَّة حتَّى ذلب

عليَّ النعاس قال الشرطي عد معنا لنتبين صدق قولك فرجعت معهم وسرنا الى ناحية المرجة حيث قومبانية الداليجانس وقد هيأت نفسي للموت اذا لم يتيسر لي الخلاص فلما وصلنا عند اول ساحة المرجة اذا بجماعة من اصدقائي قد اقبلوا علينا فلما رأوني صاح بي احدهم ويلك يا هذا لماذا لم تودع صديقنا فأبديت عذري ثم نظرت الى الشرطي وقلتُ هل كفاك هذا البرهان وهكذا انصرف وبقيت سالمًا وهي آخر ليلة قضيتها في تعليق الاعلانات .

انتهى

فيظهر للقارىء مزيد تحفظ تلك الجمعيَّة ورجالها واني لا اتعجب من فشلها فانها لو وجدت اليوم كانت اقرب الى النجاح لان الافكار تهيأت للتحرك والامة صارت تشعر بالحاجة الى العمل وليس على الله امر عسير

﴿ محاكمة مدحت باشا ﴾

بعد ان ننتهي من سرد محاكمة الذين قتلوا السلطان عبد العزيز نعود الى الكلام عن السلطان مراد وتفاصيل خلافتهِ القصيرة وما يلي ذلك من اسقاطهِ وتولي جلالة السلطان الحالي

في ١٦ يوليو عام ١٨٨١ جاءت الاخبار باثبات الحكم على المتهمين بقتل السلطان عبد العزيز وصادق مجلس التمييز على حكم دائرة الحقوق بدون أدنى استثناء وفي ٢٧ جون اعلنت جريدة (الوقت) رسميًّا أن محاكمة القوم تجري علنًا فيحضرها الذين حصلوا على أوراق الدخول وعقدت اول جلسة في اليوم المذكور وترأسها سروري افندي والقضاة ثلاثة وحضرها بعض السفراء وكبار رجال السلطنة وبدأت الجلسة الساعة الحادية عشرة فقرأ الكاتب أوراق الدعوى فاقتضى لذلك ثلاث ساعات وتلك الأوراق تطلب اجراء منطوق البند

١٨٤ من قانون الجزاء على الذين حملوا القتلة على ارتكاب القتل وهم محمود جلال الدين باشا ونوري باشا ومدحت باشا ومحمد رشدي باشا وخير الله افندي والسلطانة والدة.مراد

واجراء البند ١٧٠ على المتهمين باجراء القتل فعلاً وهم فخري بك ومصطفى البهلوان ومصطفى الجزائرلي والحاج احمد اغا ونجيب بك وعلي بك وسعيد بك ورضا بك. ثم شرع الرئيس في استنطاقهم فاعترف بعضهم وانكر البعض الآخر ثم حضر الشهود وقدموا شهاداتهم وفي الساعة ٧ بعد الظهر انفضت الجلسة . هذا مجمل ما جرى واليك التفصيل

وردت العربات تحمل جماهير الحضور الى الجلسة الاولى وكان بجانب حرس غلطة صيوان كبير جرت فيهِ المحاكمة وفي صدر المكان منضدة مغطاةً بالجوخ الاخضر وكرسي الرئيس وكراسي القضاة كلها مذهبة وعند طرف المنضدة الشمالي اقام الكاتب.والى اليمين الناظر العام وراء كرسي الرئيس بجانب الكاتب والناظر العمومي كانت

النوافذ الخاصة لدخول الضباط والشهود وخروجهم وتجاه المجلس قبالة المنضدة ترتب المتهمون وقد فصلهم عن المجلس حاجز وصفٌ مزدوج من الجندرمة وورائهم كراسٍ من القش

وكان عن يمين الناظر العام كراسٍ لجلوس الشهود بعد تأدية شهادتهم وعن يسارهِ منضدة تطرح عليها اوراق الدعوى وعلى منضدة أُخرى قريبة من المجلس وضع القرآن الشريف مغطًى بالجوخ الاخضر والانجيل المقدس والتلمود لاجل القسَم

وترتبت مائدة للطعام والشراب يرجع اليها الحضور كلما وقفت الجلسة برهة المراحة

وكان من جملة الحاضرين سعادة محسن خان سفير دولة ايران وبعض رجال السفارة وكتبة اسرارها ووكيل الصرب ومنيف باشا ناظر المعارف واغوب افندي ناظر الخزينة الخاصة والمسيو فسطر مدير البنك العثماني وتراجمة جميع السفارات. ودام الانتظام حتَّى بدأَت الجلسة الساعة

الحادية عشرة وتألفت الهيئة من سروري افندي رئيس جميع دوائر الاستئناف وكرستوفوريدي افندي رئيس دوائر الجنايات وحسن بك وامين بك وطاقور افندي وصاحبي افندي القضاة

وعلى كرسي النظارة العموميّة لطيف بك المدعي العمومي في دائرة الاستئناف وبعد نصف ساعة أحضروا أولاً مصطفى البهلوان ومصطفى الجزائرلي والحاج احمد اغا ونجيب بك وعلي بك وفخري بك وسعيد بك ورضا بك ثم احضروا نوري باشا ومحمود جلال الدين باشا صهر الحضرة السلطانيّة واعلن الرئيس افتتاح الجلسة واخذ في استنطاق المتهمين الذين صرحوا جميعاً باسمائهم والقابهم ووظائفهم ثم قدَّم الرئيس النصائح الكافية للذين تولوا المدافعة عن المتهمين وهم الافوكاتيّة رفيق افندي وشهوي افندي وعزت بك ومحمَّد علي افندي وقسطاسي سرتسكي افندي وامر الرئيس بتلاوة الرسوم بالاستنطاق والاوراق فتلاها عمر الله افندي باشكاتب الدائرة ولما كانت طويلة

استغرقت ثلاث ساعات ساعده على تلاوتها بعض كتبة الدائرة وهم رضا بك وشاكر بك وتحسين افندي وغيرهم وهذا ملخصها

انهُ بعد تنزيل السلطان مراد وجلوس السلطان عبد الحميد على العرش عوَّل على ترتيب نفقات السراي وعليهِ بحث عن امر المعاشات فوجد ان ثلاثة اشخاص من مأموري آخر درجة لهم مائة ليرة كل شهر فطلب الاستعلام عن ذلك فتبين لهُ ان المعاش المذكور ترتب لهم جزاء قتلهم المرحوم السلطان عبد العزيز ولما سئلوا عن ذلك اعترفوا الاعتراف التام ان محمود جلال الدين باشا صهر الحضرة السلطانيَّة ونوري باشا صهرها ايضاً هما اغريا مصطفى البهلوان والحاج احمد اغا على قتل السلطان واعطاهم محمود باشا التعليمات السريَّة الَّتي ابداها ايضاً نوري باشا وطلب منهم الكتمان باجبارهم على ان يقسموا اعظم الايمان وهذا القرار قرَّت عليهِ لجنة تشكلت من محمد رشدي باشا الصدر الاعظم ومدحت باشا وحسين عوني باشا وخير الله افندي شيخ الاسلام وتقرَّر من

الاستنطاق ان هذه اللجنة كانت تقصد استئصال جميع الاسرة الشاهانيَّة وعليهِ ارسلت اللجنة المذكورة تدعو هؤلاء الامراء الى مأدبة في المحل الكائن في اعالي ببك الاَّ أن الامراء لما شعروا بالمكيدة لم يحضروا المأدبة المذكورة الَّتي اقامها محمود جلال الدين باشا

ولاجل هذه الاسباب كلها فالنظارة العموميَّة تلقي على المتهمين محمود جلال الدين باشا ونوري باشا ومدحت باشا وخير الله افندي والسلطانة والدة مراد الذنوب المشار اليها في البند ١٧٤ من قانون الجنايات بالاعمال الشاقة الى امد وعلى السلطان مراد الذنوب نفسها على انهُ معذور بسبب خال حالتهِ العقليَّة وعلى المتهمين نخري بك ورفاقهِ بالذنوب المقرَّرة في البند ١٧٠ من قانون الجنايات وعقاب القتل

وبعد ان تمت تلاوة الاوراق المذكورة لخص سروري افندي الدعوى وشرع في استنطاق المتهمين فاستنطق اولاً مصطفى البهلوان

قال مصطفى ان محمود جلال الدين باشا استدعاني اليهِ وعين لي انا ورفيقي مصطفى الجزائرلي ١٠٠ ليرا عثمانيةً كل شهر لكلٍّ واحد منا اذا قتلنا السلطان عبد العزيز بفتح عرق من عروقهِ بموسًى حادة هيأَها لنا ثم ان جلال الدين باشا استدعى نوري باشا الذي اوصاها التوصية نفسها وكرر عليها اوامر محمود جلال الدين باشا قائلاً يقتضي التخلص من السلطان عبد العزيز وطلب منا كتمان السرّ فأَقسمنا ان نكتم الامر واعطى كلاً منا ٣٠ ليرا علاوة على الراتب الشهري ثم ان الضباط نجيب بك وعلي بك ادخلا مصطفى بهلوان ورفاقهُ مع ٤ خصيان الى مقر السطان عبد العزيز بعد ان قضوا ليلة بتمامها في حرس كوي الملاصق مقرّ السلطان عبد العزيز وتم قتلهُ بادارة فخري بك الذي امسك السلطان من كتفيهِ بينما قبض على ساقيهِ مصطفى الجزائرلي والحاج احمد اغا منعاً للحركة فتقدَّم مصطفى البهلوان وقطع اوردة ذراعيهِ وكان علي بك ونجيب بك يحرسان الدائرة ولما تمَّ القتل

نقلت الجثة بما حولها من الامتعة الى قهوة وجاق الحرس حيث طرحت على حصير

فقال الرئيس — اصحيح ما يقال من ان السلطان كان لايزال حيًّا بعد ما نقل إلَى الحرس

مصطفى البهلوان — لا اعلم على اني اظن انهُ شبع موتًا

وقرَّر الحاج احمد اغا ما ينطبق على تقرير رفيقهِ . اما المتهم مصطفى الجزائرلي فخالف ما كان قد قرَّرهُ اولاً وقال ان نوري باشا لم يأخذ عليهم الايمان ان يقتلوا السلطان وان يكتموا السر وانما اوصاهم ان يخدموا السلطان المخلوع احسن خدمة وان يحافظوا عليهِ كثيرًا وقال الجزائرلي انهُ اسرع في الحال لخدمة السلطان الذي انتحر في الغد

الرئيس — ألم تشترك مع رفاقك في قتلهِ

كلاَّ بل كنت في الطابق الاسفل ثم سمعت جلبة فاسرعت الى فوق مع سواي وهناك علمت بما جرى

الرئيس — قد اختلف اقرارك الآن عنهُ في السابق

— اخطأتُ فيما قلتهُ اولاً والحقيقة انني سمعت الضوضاء فحسبت ان النار شبت في السراي واسرعت فقالوا لي ان السلطان قتل نفسهُ. ثم احضروا المتهم فخري بك فقصَّ على الجلسة ما جرى عند خلع السلطان عبد العزيز ونقلهُ الى سراي طوب قبو واقامتهُ فيها بعد ان أرسل تذكرة الى السلطان مراد في سراي چيراغان قال وما دَخَل السلطان المخلوع الى هذا المكان حتّى بدأ يظهر علامات الجنون ورأى حفرة في الحديقة لتذويب الكلس فخاف خوفاً عظيماً وقال هذه شؤمٌ عليَّ ثم سمع دويّ المدافع فقال ان الشعب انقسم الى حزبين من اجلهِ وكان يكرّر القول " انني سأموتُ قتيلاً كما قتلوا السلطان سليم" ورأى بعض الجنود يدخنون السجاير تحت نوافذ السراي فاخذ يشتمهم ويوبخهم لانهم كفروا احسانهُ ثم رأى دارعة تكاد ترسو بجانب القصر فصاح انهم ينوون اطلاق القنابل عليَّ قال المتهم واذ ذاك دُعيتُ الى حرس اورطة كوى فوجدتُ نجيب بك وعلي بك فاخبراني ان

ثلثة اشخاص يدخلون الى سراي السلطان بارادة شاهانيَّة لاخراج شيء منها . فعارضتهم اولاً ثم اذعنت وهكذا دخل الاشخاص الى داخل السراي اما انا فرجعت الى السلطان عبد العزيز واعراض الجنون تزداد وكان يتوهم ان سقف السراي يحترق وانهم اشعلوهُ عمدًا ثم امر ان يؤتى بمقراض ومرآة ليزين لحيتهُ وكنت قد امرت الحرس ان لا يعطوهُ شيئًا لكنهم اعطوهُ ما طلب فانزوى في مخدعهِ بعد ان قفل بابهُ وكانت هناك امرأة من حاشية والدة سلطانة (هي مهري هانم) فارادت ان تنظر ما يفعلهُ من النافذة ولما لم تتمكن من ذلك صاحت باعلى صوتها فهرولتُ الى الدائرة ورأيتهُ مطروحًا على الارض مضرجًا بدمهِ

الرئيس — كان سيف السلطان سليم عند جلالتهِ وانت اخذتهُ

— نعم لكن وضعتهُ مع الامتعة الاخرى المطلوبة بارادة شاهانيَّة

الرئيس — لمن اعطيت السيف وكيف سلمتهُ

— اعطيتهُ لاحد رجال الحرس وسلمتهُ من النافذة

الرئيس — من هو هذا الحارس

المتهم — لا اعرف اسمهُ

الرئيس — شاهدوك مساء يوم القتل تتحدث في قاعة الحرس مع الباشوات جلال الدين وحسين عوني ونوري

— المتهم استدعوني ليكلموني عن الخدم

— لمن سلمت السيف . — لا اعرف الشخص

— لا يعقل انك تسلم السيف لشخص لا تعرفهُ

ثم استدعي الضابط نجيب بك المتهم وهو رئيس حرس الباب الذي يشرف على الرصيف فانكر الاشتراك في العمل واكد ان السلطان انتحر

وقال علي بك انهم فوّضوا اليهِ المحافظة على الامتعة المأخوذة من السراي وانهُ ذهب في ليلة الحادثة الى سراي طولمه بغجه حيث اعطاهُ المابينجي سلسلة ذهبيةً وساعة وعاد الى مقرّ السلطان المخلوع ومعهُ ٣ خدم و ٤

خصيان ارسلوا بارادة السلطان مراد وقرّر انه قضى تلك الليلة براحة ولما اصبح الصباح سمع جلبة فتيقظ واسرع الى الناحية فرأى ما هناك من الارتباك وعلم ان السلطان انتحر

الرئيس — بعض رفاقك المتهمين نظيرك يقولون انك كنت على الباب ساعة ارتكابهم جريمة القتل

المتهم — هذا غير صحيح . وفي هذه الساعة تقدم كريستوفوريدس افندي وتولى ادارة المحاكمة فقال لمحمود باشا

بعد جلوس السلطان مراد على العرش تشكلت لجنة في السراي بارادة السلطان واقتضى امرهُ ان يجري كل شيء بادارة ومعرفة هذه اللجنة فهل كنت انت عضوًا منها

— لا علم لي بوجود هذه اللجنة ولم اكن منها وفي اليوم الثاني لجلوس السلطان مراد توجهت الى السراي فاجبروني على قبول احدى النظارات وفي اليوم الثاني اقمت في السراي ولا علم لي بهذه اللجنة

– ان ادهم افندي ونوري باشا قالا غير هذا

محمود – ليسا بصادقين اذاً

– لما نقل السلطان عبد العزيز الى سراي طوب قبو فوّض اليك ان تنقل امتعتهُ وان تحافظ عليهِ فانت الذي اقمت تحرسهُ مع الضابطين نجيب وعلي

– كلاَّ انهُ لم يعهد اليَّ حراسة السلطان المخلوع

– اين كنت ليلة القتل

– في داري بالفندقلي ثم توجهت الى محمد رشدي باشا

– محمد رشدي باشا يكذبك وليلة القتل قبل ارتكابهِ بساعة شاهدوك في الحرس تتكلم مع فخري بك ونجيب وعلي

– كلاَّ

– ولكن عدد الشهود كثير جدًّا (يذكر اسماءَهم)

– يكذبون جميعاً

ك افندي – عند نقل امتعة القبطان راسم شاهدك تكسر صندوقاً دهانهُ اخضر

محمود باشا — حدث للصندوق ضرر اثناء نقلهِ

— هل توجهت الى هناك عند ما علمت الحادثة

— كلاَّ . — كيف عرفت التفاصيل

— من الجرائد . الرئيس يسأَل نوري باشا

— من سماك ماريشال السراي . — السلطان مراد

— بعد جلوس السلطان مراد تشكلت لجنة في السراي فممن تأَلفت

— من محمد رشدي ومحمود جلال الدين ومدحت وحسين عوني وخير الله افندي وانا

— ما هي مأْموريَّة هذه اللجنة

— كان لا بدَّ من عرض جميع الاشغال عليها ولا يجري شيءٌ بدون رأْيها وذلك بموجب ارادة سلطانيَّة

— من أَرسل الاشخاص الثلاثة الى مقر السلطان

— اتى بهم المابينجي سعيد باشا بامر السلطان ولما كنت رئيس السراي كان لا بدَّ من مخابرتي فارسلتهم لخدمة السلطان المخلوع واوصيتهم ان يكونوا امناء

— هل اعطيتهم تعليمات سرية

— كلاً . انني استقبلتهم في مخدعي بحضور عدد غفير وكلمتهم بصوت عال (وهنا ذكر اسماء الحاضرين)

— لكن مصطفى الجزائرلي يقول خلاف هذا انك طلبت منهم الكتمان بل اخذت عليهم الايمان

— غير صحيح . — هل توجهت الى محل ارتكاب الجرم

— نعم وذلك حالما علمتُ ان السلطان جرح نفسهُ واستدعيت ماركو باشا طبيب السلطان المرحوم وغيرهِ من الاطباء وبعد الفحص رفعوا تقريرهم امَّا ماركو باشا نخاصم الاطباء لانهُ رفض التوقيع على التقرير

عند ذلك تقدَّم محمود باشا وكذَّب نوري باشا قائلاً

— انهُ لم يعرف شيئاً من امر تشكيل اللجنة

ك افندي — ولكنك اعترفت انك انت الذي اوصى نوري باشا بمصطفى البهلوان

— انما رأيت مصطفى منذ ١٥ سنة وفي ذلك العهد اوصيت بهِ ولكنهُ لم يخدمني ولا تردَّد عليَّ

وعند ذلك استدعي مدحت باشا فدخل ثابت الجنان يحمل بيدهِ مفكرات ودفاتر ووقف في موقف سائر المتهمين وكان لدخولهِ تأثير عظيم على الجلسة ووقف متكئًا على كرسي امامهُ وقفة خطيب

فقال الرئيس

— ان الكاتب يتلو عليك الآن ما يتعلق بك في اوراق الدعوى

فانتصب مدحت باشا ونظر الى هيئة المجلس فامتدَّت اليهِ الاعناق وطوَّقتهُ الابصار فقال

قبل ان اسمع ما تضمنتهُ تلك الاوراق يليق بي ان أقول انني اعدُّ نفسي سعيدًا جدًّا اذ دعيت لابرّر نفسي امام جلسة علنيَّة . وفي الوقت نفسهِ يجب عليَّ ان امتدح غيرة المأمورين بالقضاء وحسن مساعيهم الذين رغبوا ان يقوموا حق القيام بما يجب عليهم بمقتضى مأمورياتهم فتصرفوا بشيء من التسرع وقاتل الله العجلة فان عليها يسافر الصواب فرأيناهم اصدروا حكمهم قبل ان يقضوا على

انني لا استطيع الامتناع عن تقديم واجبات الاكرام لشعائر العدل الّتي اتصف بها عظمة السلطان فتنازل واراد ان يكشف النقاب عن هذه المسأَلة في محاكمة علنيَّة وهي ايها الناس خطوة عظيمة في سبيل الحريَّة . ثم شرع الكاتب في قراءة مرسوم الاحالة واوراق الدعوى فقاطعهُ مدحت باشا وقال

قبل أَن أَسمع ما في هذه الاوراق يليق بي . . . .

فقاطعهُ كريستوفورس افندي وبين لهُ ان ارادة المحكمة من متعلقات الرئيس لا من متعلقات المتهم ثم اجاب مدحت باشا على سؤَال ك افندي . انهُ لا علم لهُ بوجود اللجنة وانهُ لا يعرف في ذلك الحين الاَّ بوجود مجلس الوزراء الذي كان وحدهُ يدير الامور وانهُ كان من جملة الوزراء لكنهُ لم يعطَ امرًا بقتل السلطان السابق

الرئيس — من امر ان يؤْخذ من السلطان المخلوع سيف السلطان سليم .

— هل بعد الخلع

— نعم

— حالما نقل السلطان الى سراي طوب قبو صدر الامر ان يبعد عنهُ كل سلاح على سبيل التحوط فقد خشي ان يعتدي على حياتهِ

— متى علمت عن وفاة السلطان

— يوم الاحد . وكنت قد توجهت الى الباب العالي لاحضر جلسة عتيدة ان تعقد فوصلت ولم اجد احدًا فقيل لي ان المستشار سعيد افندي وحدهُ هناك فدخلت القاعة لاسأل عن غياب الوزراء فاخبرني سعيد افندي بما جرى وقد كدَّرني ذلك كثيرًا خصوصاً اذ خطر لي ان الناس يرمون الآخرين بالتهم

— ولكن سعيد افندي يكذبك

— ليس لتكذيبهِ اهميَّة فقد بارحتُ الباب العالي فلما مررتُ على طولمه بغجه عرجتُ على حرس اورطه كوى حيث كان هناك لفيف الوزراء وجمهور من العلماء وغيرهم من اهل المناصب و١٩ طبيباً وجميعهم مع نخري



بك قالوا لي ان السلطان المخلوع قتل نفسهُ فصدَّقتُ نظير سائر الناس

— قالوا انهُ ما عدا الجراح الَّتي كانت في ذراعي السلطان وجد جرح فوق ثديهِ الايسر وآثار أُخرى شديدة تدل على الاغتصاب ولما كنتُ وزيراً كان من اهم واجباتك ان تأْمر بالفحص

— اذًا القواعلي المسؤُوليَّة لهذا السبب وجب ان تلقى المسؤُوليَّة ايضاً على سائر الوزراء ولكنني لا أَراهم بجانبي في هذا الموقف فيقاسمونني المسؤُوليَّة لعدم اصدارنا الامر بالفحص

— هل بدت من السلطان المخلوع اقلّ اشارة تدل على الحياة عند ما نقلت جثتهُ الى الحرس

— لا علم لي

ك افندي — محمَّد رشدي باشا يقول غير ذٰلك

مدحت — ذلك ممكن وقد قرَّر محمَّد رشدي اموراً أُخرى كثيرة

ك افندي — يرغب المجلس ان يستفهم منك عن امر آخر . فما هي الاسباب الّتي حملتك على الالتجاء الى قنصليّة فرنسا

مدحت — تحتاج هذه الحادثة الى تفصيل . فاعلموا انهُ وردت لي تحارير من الاستانة تعلمني بكل ما كان يقال في حقي وذكرت فيها التهمة الّتي اتهموني بها في ظروف لا يطمئن لي بها بال وفي صباح احد الايام رأيتُ حسن بك معاون الحضرة السلطانيّة قد وصل الى ازمير فاتى في الحال الى القوناق واخذ في مراسلة السراي برسائل رقميّة (شيفرة) فاخبرني بكل ذٰلك البوليس السري الذي كنتُ قد شكلتهُ وعلمتُ للحال ان المؤامرة ضدّي قد بدأت وفي غضون ذٰلك علمتُ بوصول مأمور عسكري وهو علي بك رجل من فطرة چركسلي حسن وزعم انهُ جاءَ ليترقى الى رتبة كولونل لكن لباسهُ الرسمي لم ينجز بعد فجاء الى ازمير بدون ثوب رسمي واخذ يطعن عليّ ويقذف في حقي ناسباً اليّ عدّة امور نخطر لي ان

القي القبض عليهِ ولكنني لم أفعل وعند ذلك بانني ان في نيتهم القبض عليَّ وفي تلك الليلة نفسها احدق بمنزلي نحو ثلثة آلاف جندي فخشيتُ ان انا خرجتُ اسقط في ايدي رجال علي بك المذكور ولهذا خرجتُ من باب البستان وركبتُ اول عربة رأيتها وسرتُ الى الحيّ الاوربي واول باب مفتوح عرض لي كان باب قنصلاتو فرنسا فدخلتهُ للحال

ثم ان مدحت باشا دحض التهمة الَّتي توجهت اليهِ من ان الباب كان مثقوبًا عمدًا منذ ايام لهذه الغاية وان العجلة كانت مهيأة ايضًا منذ ايام

وهناك توقفت الجلسة

وعند استئنافها اخذت في استماع شهادات الشهود الذين لا يحصى عددهم

وفي ٢٩ منهُ اجتمع المجلس وتلي طلب المدَّعي العمومي وقرار المجلس الحاكم على مصطفى البهلوان والحاج محمد ومصطفى الجزائرلي ونخري بك بارتكابهم القتل وعلي محمود

باشا ونوري باشا وعلي بك ونجيب بك وسعيد بك وعزت بك انهم شركاء الارتكاب وبعد الدفاع من المحامين قال بعضهم انهم يميزون الحكم وقال البعض الآخر انهم يسلمون امرهم لمراحم الذات الشاهانيّة وطلب محامي محمود باشا تخفيض القصاص

ثم انفرد المجلس للمداولة وعاد فحكم حكماً قطعيًّا على البهلوان والحاج عمر والجزائرلي ونخري بك ومحمود باشا ونوري باشا وعلي بك ونجيب بك بالقتل توفيقاً للبند ١١٥ من القانون العثماني وعلى سعيد بك وعزت بك بالسجن ١٠ سنوات والاشغال الشاقة وهذا الحكم باتفاق الآراء اما الحكم على الباشاوات فكان بالاكثريّة وهكذا اخرجوا جميعاً ثم صدر الحكم على مدحت باشا بغياب سروري افندي رئيس الجلسة الذي غاب لخلاف طرأ بينهُ وبين مدحت فلاجل رفع الشبهة خرج سروري افندي من المجلس ودخل مدحت فتلي عليهِ طلب المدَّعي العمومي القاضي باعدامهِ فسأَلهُ الرئيس اذا كان يعترض

اجاب مدحت — لديّ اشياء كثيرة اقولها عند المحاكمة

قال الرئيس ليس لهذا من محل في هذا المجلس

قال شهري افندي محامي مدحت ان الباشا يطلب تمييز الحكم فتذاكر المجلس وعادوا فحكموا باتفاق الاصوات باعدامهِ ثم بلغهُ الرئيس انهُ اذا اراد التمييز فعليهِ تقديم أوراقهِ بعد مرور ثمانية ايام فقط وهكذا انتهت هذه الجلسة

ذكرنا آنفاً ان بعض المحكوم عليهم فوَّضوا امرهم الى رحمة السلطان وطلب غيرهم التمييز فاجيبوا الى ما طلبوا

ثم عقدت جلسة ثانية وابتدأت بتلاوة تقارير السلطة الشرعيَّة عما يتعلق بقتل السلطان عبد العزيز والذين ارسلهم شيخ الاسلام للكشف الرسمي لدى موت جلالتهِ فاحضر حسين حسني معاون شيخ الاسلام وقرَّر انهُ بناء على اشارة خير الله افندي شيخ الاسلام

توجه الى حرس ارطه كوى ليجري الكشف الرسمي على وفاة السلطان وكتب تقريراً هو المعروض الآن على المجلس الاَّ انهُ تقرير غير مستوفٍ لان الكشف جرى بعد الدفن بيوم او يومين. ثم حضر الشاهد ثابت مصطفى افندي المستنطق وقرَّر ان عبد الله باشا الجركسي ناظر البوليس وقتئذٍ بعثهُ مع بعض العلماء الى الحرس ففتشا وسألا نخري بك وجميع من حضر اليهما وقدَّما تقريراً عن وفاة السلطان فوقَّع عليهِ ولا يعلم ماذا جرى بالتقرير المذكور

الرئيس — هل رأيت الميت

— كلاَّ لانهُ كان قد مضى على دفنهِ ٣ ايام

ثم حضر الشاهد مرسي افندي الاسرائيلي وهو احد الاطباء الذين أُحضروا للكشف على جثة السلطان فقرَّر انهُ حضر مع سائر الاطباء الى الحرس ورأوا هناك محمود باشا ورفاقهُ وقال ان الاطباء لم يكشفوا الاَّ على ذراعي السلطان وساقيهِ ووجههِ وذلك بسرعة تامة ثم امضوا تقريراً

ربما كان قد أُحضر من قبل واكتفوا بذلك من غير بحثٍ أَو تفتيش طبي

ثم حضر الشاهد ابرهيم ادهم بك احد رجال السراي ولشهادتهِ اهميةٌ لانهُ كان الواسطة في جميع المخابرات بين السلطان مراد ومجلس الوزراء والسلطان عبد العزيز بعد خلعهِ. قال الشاهد . ان عبد العزيز أَرسل بعد خلعهِ بيومين رسالة الى السلطان مراد (وهي الّتي تقدَّم نشر صورتها في أَوَّل الكتاب) وانهُ هو وابرهيم نقلاها وانهُ عاد الى السلطان وقال لهُ ان السلطان مراد يرخص لهُ بالاقامة في سراي فرعية بجانب سراي جراغان وان مجلس الوزراء فوَّض الى الشاهد المذكور نقل السلطان فنقلهُ بمزيد التحفظ وقال انهُ رأَى علي بك وغيرهُ من الضباط يسيئون معاملة السلطان عند وصولهِ الى السراي المذكورة

الرئيس — يهمنا ان نعرف الصعوبات الّتي اعترضت تقديم صحن من الشوربا كان قد طلبهُ السلطان عبد العزيز

الشاهد — كان قد فوّض اليّ النظر في فرش سراي طوبقبو فسألوني ماذا يأكل السلطان المخلوع وحاشيتهُ قلتُ ان ذلك خارج عن مأموريتي فلما كرَّروا الطلب رجعتُ الى طولمه بغجه وسألتُ نوري باشا حاجب السراي عن ذلك فاجاب ان ذلك غير متعلق بهِ وصادفتُ حسين عوني باشا فسألتهُ السؤال نفسهُ فاخذني الى مجلس الوزراء وكلمهم . ثم دعوني وفوَّضوا اليَّ وكالة دار جلالتهِ

الرئيس — من هم رجال ذلك المجلس

— هم مدحت باشا ومحمد رشدي باشا ومحمود باشا وخير الله افندي

— اذًا اقتضى قرار من مجلس الوزراء لتقديم طعام ياكلهُ السلطان المخلوع

— نعم

— ماذا تعلم عن مصطفى بهلوان ورفيقهُ

— أعرف انهم أُدخلوا اولاً الى مجلس الوزراء ثم

أُرسلوا لخدمة السلطان المخلوع

ثم حضر احمد اغا المابينجي وقرّر انهُ ادخل الذين تقدَّم ذكرهم الى نوري باشا الذي التأَم المجلس عندهُ وانهُ امرهُ بعد ذلك بالخروج وان يقفل الباب

الرئيس — كم استمرّ الاجتماع

— نحو ٨ دقائق وعلمتُ بعد ذلك انهم ارسلوا من يخدم السلطان

ثم استدعي احمد افندي الضابط وعثمان باشا الفريق وقرّرا ان المتهم علي بك كان قبل القتل بليلة في قصر السلطان المقتول وليس في سراي طولمه بغجه

ثم أُحضرت الى المجلس ملابس السلطان المقتول التي كانت عليهِ ساعة القتل مؤلفة من لباسين وجلاَّبيَّة وقميص و٤ ستائر كلها مخضبة بالدم ثم أُحضر الذين توجهت عليهم التهمة فقال الرئيس هل عندكم ما يقال ضدّ الشهود الحاضرين

فاجاب مصطفى البهلوان ورفيقهُ سلباً اما فخري بك

فأنكر ما قالهُ احد الشهود عنهُ من انهُ قال (لا يعلمنَّ انسان بحقيقة قتل السلطان عبد العزيز الاَّ بعد موتي من ورقة يرونها في صناديقي)

واما البكوات نجيب وسعيد ورضى وعلي فاعترضوا على جميع ما قالهُ الشهود ضدَّهم وانكر محمود باشا قول الشهود انهم شاهدوهُ في حرش اورطه كوى قبل مقتل السلطان

الاَّ ان لطيف بك المدَّعي العمومي اكَّد جميع ما قرَّرهُ الشهود واثبت من سير الدعوى ذنب المتهمين وطلب اصدار الحكم عليهم

فدافع المحامي عن مصطفى بهلوان ورفاقهِ بانهم أُجبروا على قتل السلطان فاذا تمكنت الدائرة من معرفة الذين اجبروهم صار في الامكان براءة هؤلاء المتهمين الذين لا يتجاسرون على قتل السلطان من تلقاء انفسهم

وقال نجيب بك انهُ كان يحرس الباب فلم يشهد القتل ودفع المحامي عن الجزائرلي التهمة الموجهة اليهِ انهُ

كان في السراي وعلى كل حال فاذا كان قد جرى القتل حقيقة فهو في جملة الذي أُجبروا عليهِ فضلاً عما في تقارير الاطباء وشهادات الشهود من التناقض والاختلاف

وقال المحامي عن فخري بك ان السلطان عبد العزيز عرف من موكلهِ مزيد الاخلاص واختصهُ بخدمة شخصهِ وقد قرَّر الاطباءَ ان السلطان انتحر وان الجرح كان بالمقراض ولكن اي فرق بين المقراض والموسى

فاعترضهُ المدَّعي العمومي قائلاً اذا كان لا فرق بين المقراض والموسى فذلك لا يدل على ان السلطان قتل نفسهُ بل يدلُّ على استخدام احدى الآلتين لقتلهِ

قال المدافع عن سعيد بك وعزت بك وعلي بك انهُ لا يرى في الدعوى ما يكفي لاثبات الجرم عليهم وسجنهم

اما المحامي عن نوري باشا فبنى دفاعهُ على انهُ لا يوجد سبب يحمل نوري على قتل السلطان ولا ما يحركهُ

على هذا الارتكاب وان التناقض ظاهر في البينات وان تقرير الاطباء يؤكد ان السلطان انتحر

امَّا المحامي عن محمود باشا فبنى دفاعهُ على ثلاثة اركان واراد ان يبحث فيها وهي اولاً هل يوجد ارتكاب ام لا ثانياً هل المتهم شريك في الارتكاب ثالثاً هل يصح فيهِ انهُ امرٌ مجبر

فنهض محمود باشا وقال انهُ هو الذي يدافع عن نفسهِ بنفسهِ لانهُ لم يفاوض المحامي في هذا الشأن وبدأ فانكر جميع ما اتهم بهِ وما قرَّرهُ مصطفى البهلوان من انهُ هو الذي امر بقتل السلطان فقال انني لم اقتل السلطان ولا أدري الغاية او الفائدة من ذلك كما انني لم أرَ مصطفى المذكور ولا شاهدتهُ ولم تكن اللجنة موجودة ولا كنتُ من اعضائها وليس لي ضلعٌ في خلع السلطان كما ان الخلع لم يتم برأي اربعة رجال على ما يزعم البعض بل كان الخلع برأي وارادة الامة وبقوة الرأي العام فقال المدَّعي العمومي لا فرق بين الخلع والقتل قال محمود باشا قالوا اني من

انسباء السلطان مراد ووالدتهُ ولكنني مع سائر الوزراء لم نرَ السلطان مراد الاَّ بعد جلوسهِ ثم ختم كلامهُ قائلاً ان حجتهُ طويلة ولكن صحتهُ لا تسمح لهُ بكثرة الكلام

ثم دحض المدَّعي العمومي ما قالهُ محمود باشا وطلب الحكم عليهِ

فقال محمود باشا ممَّا يؤكد لكم براءَتي انني لم احصل بعد موت عبد العزيز على رتبة او وسام بل لم احصل على شيءٍ

نظيف بك — لماذا لم تحضر مجلس الوزراء حين حادثة حسن الشركسي

محمود باشا — لانني لم أُدعَ اليهِ

المدَّعي العمومي — لا بل لاسباب أُخرى

— وما هي هذه الاسباب

المدَّعي العمومي — شاع انك كنت تعلم بما اضمرهُ حسن المذكور

فانكر محمود باشا واستولى عليهِ الغيظ الشديد

وسئل نوري باشا ان كان لديهِ غير ما دافع بهِ المحامي عنهُ فاجاب سلبًا . ثم ان الرئيس استنطق سائر المتهمين فانكروا ارتكاب الجرم او الاشتراك بهِ وسأَل خريستوفوريدس افندي مدحت باشا عما قررهُ سعيد بك ونوري باشا وسعد افندي الذي كان وقتئذٍ مستشار الداخلية فقال مدحت — . قلت امس ان لا أهميةً لشهادة سعيد افندي الذي كان في الباب العالي يوم الاحد وهو اليوم التالي لوفاة السلطان وهو الذي اخبرني بالحادثة وربما ينكر هذا لانهُ باعترافهِ قد يقع في محذورات عديدة

الرئيس . ما ذا تقول في سعيد بك

مدحت — قد قرَّر اني لقيتهُ ذات يوم وسأَلتهُ عن مصطفى بهلوان ورفاقهِ فهل كانت هذه حجة راهنة وبرهان لا يدفع اما ما قررهُ نوري باشا فقد سبقهُ غيرهُ إلى هذا الادعاء الفارغ

عند ذلك قدَّم المدعي العمومي شاهدًا من سوريا اسمهُ رفعت افندي فبعد ان اقسم الايمان قرر انهُ لما كان

مأموراً في سوريا أُرسل مرة الى حوران للتفتيش فلما رجع الى دمشق ذهب باوراق مأموريتهِ الى دار مدحت باشا ورآهُ يحدّث اشرف افندي وسمعهُ يقصُّ عليهِ خبر خلع عبد العزيز بجميع ظروفهِ وان مدحت قال في سياق الحديث (انهُ فيما كان السلطان يريد التخلص منا خلصنا انفسنا منهُ)

فسأَل الرئيس مدحت باشا عن رايهِ في هذهِ الشهادة فقال هل يخطر لعاقل ان مثل هذا الحديث المهم يقال امام اي كان . اما انا فقد علمتُ ما هو هذا الرجل الذي لم يمنعهُ الخجل من ان يكذب بعد ان حلف اليمين . فاعترض الرئيس وقال ليس لك ان تشتم الشهود

فاجاب مدحت . مناسب مناسب استعيد كلامي ولكن هذا الرجل أُرسل من هناك واتى الى الاستانة طالباً وظيفة قضائية

عند ذلك نهض المدعي العمومي وبدأَ بالدعوى وذكر من جملة الادلة التجاء مدحت الى قنصلية فرنسا وطلب

صدور الحكم فتكلم مدحت طويلاً الى ان قال . اما ان
يكون السلطان قد انتحر او مات قتلاً فان كان قتل نفسهُ
فليس لهذه المحاكمة كلها من فائدة لكن يقال انهُ قتِل عمدًا
فلدى وصولي الى الاستانة قيل لي انهُ توجد ادلة كثيرة
مع اقرار المتهمين والشهود فارتبتُ في صحة ذلك حتَّى اذا
ابلغوني مضبطة اتهامي انذهلتُ وقلتُ أَلهذه الادلة يتهم
العدد الغفير من الناس بذنب عظيم كهذا . ثم انهُ ندَّد
كثيرًا بمضبطة الاحالة والاستنطاق واظهر فساد المحاكمة
وتكلم في بطلان الادلة واستغرب طريقة الاستنطاق وتعجب
من عدم حضور الخصيان الذين كانوا في حجرة السلطان
حين القتل على كراسي المتهمين بل رآهم قد وقفوا بصفة شهود
ثم انف من الاتهام الموجه الى محمود نوري باشا بوصف لا
حق لاحد ان يستعملهُ حتَّى السلطان نفسهُ خصوصاً بعد
التنظيمات الجديدة وطلب اخيرًا ان يعرض عليهِ كل متهم
ليسمع اقرارهُ. فابى الرئيس احضارهم وقال المدعي العمومي
ان البند الذي اعتصم بهِ مدحت يتعلق بالشهود

لا بالمذنبين اما مدحت فانهُ اصرَّ على طلبهِ وابى الدفاع عن نفسهِ فرفض المدعي طلبهُ وطلب من المجلس المذاكرة فتذاكر واذ ذاك رضي مدحت ان يدافع ولكنهُ ما زال يلحُّ بوجوب اجابة طلبهِ مستندًا على الشريعة اما الرئيس فبعد ان الحَّ على مدحت ثلاثًا ختم الجلسة واختلت هيئة المجلس فاصدرت القرار الذي اسلفنا ذكرهُ

ثم ان مجلس التمييز تفرَّغ للبحث عن المتهمين وذلك عن حكم دائرة الجنايات بقتل السلطان عبد العزيز ومعلوم ان لا محل للتمييز في الحكم على من اقرَّ بذنبهِ واما الذين اصرُّوا على انكار الاشتراك فانهم بعد تلاوة الحكم المبني على الاثبات والشهادة المقررة اخذوا يعترفون بالقائهم الذنب بعضهم على البعض الآخر فقال احدهم للآخر انت الذي كنت السبب وهذا ينادي انهُ بناء على رأي فلان ارتكب الذنب وآخر يقول ان فلانًا قدم لنا الموسى وآخر يقول ان فلانًا هو الآمر وآخر ينادي قائلًا انما سرتُ بحسب اوامر فلان وكان محمود باشا يستشيط

غيظاً من نوري باشا وتسمعهُ يلعن اسم نوري باشا فقال ان نوري هو الذي جرني الى هذه المسئلة وفيما كان منهمكاً بسلب الحلى والمجوهرات والاثاث والامتعة الثمينة ساقنا الى ارتكاب الجناية فقد سلب من الحلي ما بلغت قيمتهُ ٧٠٠٠٠ ليرة عثمانيةً وسلب من السراي الامتعة الثمينة الّتي ازدانت بها دائرة الحضرة السلطانيةّ كالكراسي والمكاتب ونقل ذلك كلهُ الى دارهِ في بلطة ليمان ولما صرتُ في المابين الهمايوني استرجعت منهُ هذه المفروشات ووضعتها في محلها . ولنوري باشا اليوم عند كريستاكي افندي وعند غيرهِ من الصرافين مليون ليرة ذلك كلهُ من سرقة اموال الشهيد السلطان عبد العزيز

واما نوري باشا فقال ان محمود باشا كان منوطاً بهِ امر سراي فرعية وهو الذي قدم الموسي للقاتل مصطفى بهلوان واما ما سلبهُ من الامتعة فقد اعتذر عن ذلك قائلاً ان الذي سلبهُ من السراي ليس بشيء بالنسبة الى ما سلبهُ غيرهُ

اما محمَّد رشدي باشا المترجم فكان كلما دخل السراي

يقول ألا يكون لي ايضاً فرش يوافق مخدعي ثم يأخذ كل ما استطاع من الاثاث عتيقاً كان او جديدًا وينقلهُ الى منازلهِ

واخذ رشدي باشا وزوجتهُ خمسة آلاف ليرة عثمانيَّة والوف كثيرة من الليرات وُزّعت على سائر المشتركين بالذنب فان السلطانة والدة مراد افندي كثيرًا ما اهدت الحلى الكريمة لزوجة رشدي باشا وان كل ما وجد في سراي فرعية من الامتعة الثمينة نقلهُ محمود باشا الى دارهِ بكثير من الصناديق . واما محمود باشا فلم يكتفِ بان يذكر ما لنوري باشا من المال نقدًا بل ذكر ما لهُ من العقارات فاكد ان النقود التي سلبها من السراي زادت في املاكهِ في بلطه ليمان حيث زاد في البناء وابتاع كرماً وانهُ بنى مؤخرًا في حيدر باشا قصرًا ولديهِ من المجوهرات والامتعة الثمينة نحو ٣ ملايين ليرة

وهذه المحاكمة العلنيَّة قد اظهرت كيفيَّة مقتل السلطان عبد العزيز وقد اشتهر الامر وذاع واصبح مدفن جلالتهِ

مزاراً يقصده اهالي الاستانة للتبرك وعند نهاية المحاكمة قدمت السلطانة والدة السلطان عبد العزيز عريضة الشكر للسلطان عبد الحميد حامدةً انصافهُ واجتهادهُ لاظهار الحق. وهذا آخر ما اتصل بي من امر هذه المحاكمة ومنها يظهر ان السلطان عبد الحميد كان في اول ايام ملكهِ عادلاً ولا أدري ما الذي طرأ عليهِ هذه الايام حتى وصل بالمملكة الى هذه الدرجة ولكن أُرجح انهُ منذ حادثة السعاوي وثورتهُ لانقاذ ملكٍ مظلوم وقتل ملك آخر اصبح جلالتهُ اذا رأى غير شيء ظنهُ رجلاً

وسنأتي على تتمة ما جرى لمدحت باشا وحادثة علي السعاوي في وقتهما

السلطان مراد

اعود الآن الى الكلام عن السلطان مراد المسجون في قصرهِ وهو الرجل الذي كنا نأمل الخير من ملكهِ فغطتهُ سحابة من وجود السلطان الحالي في صغر سنهِ

هو السلطان ابن ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان وُلد من امّ ٍ شركسية في ٢١ ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٤٠ وظهرت عليهِ منذ طفوليتهِ مخايل النجابة والذكاء وعني والدهُ بتربيتهِ واحبهُ كثيرًا وكان يناديهِ "مرادم" اي يامرادي واقام على تعليمهِ فريد افندي وعمر افندي وكان الثاني من مشاهير كتبة ذلك العصر فافرغ جهدهُ في تعليمهِ حتى اكسبهُ ملكة الانشاء فاصبح يعدُّ من كتبة اللغة التركيَّة ولهُ الاشعار الرائقة والمقامات الفائقة .

وتلقى العربيَّة عن الاستاذ الشهير الشيخ حافظ افندي واتقن قراءة القرآن الشريف وولع كثيرًا بالرياضيات والهندسة والتصوير ولما بلغ الرابعة عشر من سنهِ بدأ بدرس اللغة الافرنسيَّة . واستاذهُ الاول فيها ادهم افندي المعروف بادهم باشا الصدر الاعظم المشهور ولهُ سيرة غريبة يحسن بنا ذكرها بوجيز العبارة

ولد من ابوين يونانيين ونجا بصدفة غريبة من مذبحة شيو (١٨٢٢) و بيع بيد النخاسين كعبدٍ في الاستانة

فساقهُ الحظ ان اشتراهُ خسرو باشا الصدر الاعظم في عهد السلطان محمود ولما رأى فيهِ الذكاء وتوقد الذهن ارسلهُ الى مدرسة باريس الكبرى فبرع فيها وكان من انجب تلامذتها وحاز قصب السبق في الفنون والعلوم فعاد الى الاستانة بعد ان احرز الشهادة وبدأ يتقلَّب في الوظائف والرتب فعيّن مستشارًا ثم وزيرًا ثم سفيرًا وبعد نفي مدحت باشا (٥ فبراير شباط ١٨٧٧) أُلقيت اليهِ مقاليد الصدارة العظمى

وخلفهُ في تعليم مراد افندي كامل باشا والموسيو كاردي فوقف السلطان المخلوع على اسرار اللغة الافرنسيَّة ولكن لم تسمح لهُ الاحوال بممارستها ولذا لم يتمكن من التكلم بها كما يلزم وقد رأيتُ خط يدهِ في احدى الكتب الفرنسويَّة مأخوذًا بالفوتغراف · وقيل ان ولعهُ الشديد بالموسيقى هو الذي حال دون تمكنهِ من العلوم واللغات · وتلقى ذلك الفن عن استاذين ايطاليين وهما كوتللي باشا رئيس الموسيقيين في البلاط الشاهاني

واوغست لونباردي فبلغ فيهِ المقام الاعلى

ولم تقتصر براعتهُ على ضرب اصعب الاغاني والاناشيد فقط بل كان من المؤلفين فيها ابتكر انغاماً جديدة باناشيد تركيَّة ثم هام بحب فتاة من البلجيك ورغب في التزوج منها فعارضهُ والدهُ واوجب ذلك حزنهُ الشديد

وامتاز بحرّيَّة افكارهِ فانتظم في سلك الماسون وكان يذهب الى المحافل سرّاً تحت ستار الليل الدامس

ثم ظهرت امارات السوداء عليهِ فانهُ بينما كنت تراهُ فرحاً بشوشاً ينقلب الى سكون تام فتراهُ قد سهي وشتّ وحلّق في جو الاوهام والتخيّلات ثم يقوم الى البيانو فيجلس ساعات متوالية يضرب عليها منشداً الحاناً يبتكرها بنت ساعتها كأَنهُ غائص في بحر من الفكر

وولع في الهندسة فأَنفق المبالغ الباهظة في تزيين قصرهِ واستدان اكثرها بفائظ فاحش

وكان لطيفاً محبوباً حليماً طويل الاناءة وانما نظراً للعادة القديمة المتبعة بين سلاطين آل عثمان وهي الحجر

على اولياء العهد وعدم السماح لهم بمخالطة احد لم يتمكن من الوقوف على عادات الامم فكان يقتل اوقاتهُ بما ذكرنا من الملاهي . ولا يخفى بان ذلك يولّد خمولاً في الادراك وشراسةً في الاخلاق ورغماً عن ذلك كان شديد الميل الى العلوم وظلّ رضي الاخلاق لم يكدّر احدًا . يؤيّد ذلك اتفاقهُ الدائم مع عمهِ عبد العزيز افندي (لما كان وليًّا للعهد) رغماً عما اشتهر عنهُ من شراسة الاخلاق ولم يختلفا الاَّ قبل وفاة والدهِ السلطان عبد المجيد حيث توهَّم عمهُ عبد العزيز بأَنهُ اتفق مع والده على تحويل ولاية العهد اليهِ فلم يتمالك عبد العزيز اخفاء كدرهِ فكلَّف احد اخصَّائهِ ان ينوب عنهُ بابلاغ مراد افندي كدرهُ منهُ فلا تسل عن دهشة مراد افندي لما بلغهُ تهمة عمهِ وصاح بالرسول قائلاً اما حان لهُ ان يعرفني وقد اختبرني منذ ١٣ سنة ومع ذلك فاني ارضى ان يحجر عليَّ حتَّى يتوفى والدي ويتولى هو الخلافة بعدهُ فرضي عبد العزيز عنهُ ووعدهُ بحسن المعاملة متى تولى الخلافة وانهُ يترك لهُ دارهُ في

قصر (طولمه بغجه) ويعين لهُ معاشًا شهريًا خمسة آلاف ليرة ويختًا مخصوصًا لنزهتهِ

فلما توفي السلطان عبد المجيد وخلفهُ السلطان عبد العزيز نسي ما وعد بهِ ابن اخيهِ الذي صار وليُّ عهدهِ فانهُ لم يسمح لهُ اولاً بدارهِ في طولمه بغجه بل اعطاها لهُ ولاخيهِ عبد الحميد افندي " السلطان الحالي " ثانيًا لم يعين لهُ سوى ربع ما وعدهُ بهِ من المعاش . ثانيًا وهبهُ يختًا ثم عاد فانتزعهُ منهُ واخيرًا اعاد لهُ بناية قوربقه ليدره "في جهة اسيا بالقرب من اسكي دار" واودعهُ فيهِ كسجين

معاملة عبد العزيز

وفي عام (١٨٦٣) توفي سعيد باشا خديوي مصر وخلفهُ اسماعيل باشا فقدم الاستانة العليَّة لتأدية واجبات الشكر للسلطان عبد العزيز خان وقدَّم لهُ يختهُ (فيضي جهاد) الذي صنعهُ في انكلترا وانفق عليهِ ١٥٠٠٠٠ ليرة استرلينيَّة اشارة لامتنانهِ من تعطفات السلطان بالخلافة

الخديويّة فسرّ بهِ السلطان ولما قدم جلالتهُ مصر ركب ذلك اليخت ومعهُ مراد افندي خوفاً من خلعهِ او المؤامرة عليهِ في غيابهِ . ولكن لم يلبث طويلاً حتى غضب عليهِ بلا ذنب فأمر بالحجر عليهِ ثلاثة اشهر في قصرهِ ومنعهُ من مقابلة احد ... كل ذلك خوفاً منهُ . ولما تذمّر مراد افندي من سوء حالهِ وشكى اليهِ امرهُ ملتمساً منهُ العفو كان جزاؤُهُ ان اطال مدّة حجرهِ الى سنة كاملة

وظلّ السلطان عبد العزيز على تلك المعاملة مع ابن اخيهِ تارةً يرضى عنهُ وطوراً يغضب عليهِ حتّى رحلتهُ الى معرض باريس عام ١٨٦٧ حيث اخذ معهُ نجلهُ يوسف عزّ الدين افندي وولدي اخيهِ ومراد افندي وعبد الحميد افندي (السلطان الحالي) ولكن لم يصل الى مرسيليا حتى ثار فيهِ الحقد والغضب واخذ يفكر فيما اذا كان يحجر على وليّ عهدهِ في الباخرة (فيضي جهاد) او يرجعهُ الى الاستانة موثقاً فلما بلغ فؤاد باشا ذلك تجاسر وقال لمولاهُ ماذا تقول عنك ملوك اوربا اذا حجرت عليهِ وقد

بلغها خبر مجيئهِ بمعيَّة جلالتك

فاذعن الى قولهِ مضطرّاً وعادت تلك الرحلة على مراد افندي بالويل فان عمهُ كان يغضب منهُ ويحرق الارم كلما رأى احتفاء والتفات نابليون الثالث والملكة فكتوريا بهِ خصوصاً لتفضيلهم اياهُ على بكرهِ يوسف عز الدين افندي

ولما عاد الى الاستانة حجر عليهِ في جفتلك — قور بقه ليدره — واحاطهُ بالجند والحرس ولم يسمح لهُ بالخروج حتَّى ولا بعربةٍ مقفلة ومنعهُ من مقابلة اصدقائهِ

ويقال انهُ رغماً عن جميع هذه الاحتياطات تمكن مراد افندي من الخروج سرًّا وغلساً فكان يزور بعض اصدقائهِ الاخصَّاء او يذهب الى حفلةٍ ماسونيَّة وقرأنا لبعض اصدقائهِ الرواية الآتية ننقلها على علاتها والعهدة على الراوي والنقل صحيح قال . بينما كنت جالساً في غرفتي ذات ليلةٍ قرع الباب ودخل عليَّ رجل بلحية وعلى رأسهِ قبعة فدهشت من دخول ذلك الزائر المفاجىء

فتبسم وقال هلمَّ الى الملهى الفرنساوي (تياترو) فلا تسل عن دهشتي لما عرفت ان الواقف امامي هو مراد افندي ولي العهد فقلت لهُ واذا عرفوك . فاجاب وانى لهم ذلك وانا بهذه اللحية العاريَّة وهذه القبعة الافرنجيَّة فامتثلت امرهُ وقصدنا الملهي فقال انا الليلة هرون الرشيد وانت جعفر البرمكي وظلَّ تلك الليلة فرحًا لعوبًا حَتَّى قدم احد الباشوات وجلس بالقرب منا نخاف ان يكشف امرهُ فقال لنرجع الى بيتك فنضرب قليلاً على البيانو ونبحث بعدهُ في الفلسفة فقام وتبعتهُ وقضينا تلك الليلة كما شاء واراد. انتهى

وكان رغمًا عن عدم تعمقهِ في العلوم والفنون والِمًا بالبحث فيها جميعًا يكثر من السؤال والاستفهام عن الامور الَّتي أُشكلت عليهِ كرجل يحب الوقوف على كل شيء

وامتاز خصوصًا عن آلهِ وذويهِ بحريَّة افكارهِ وكرههِ الشديد للتعصب حتى انهُ كان يقول (اذا صرتُ سلطانًا لاطردنَّ ذلك السلطان (التعصب) السائد على مملكة آل عثمان

وطلب من احد المحامين الفرنساويين ان يهيئ لهُ قانوناً اساسيًّا للدولة العثمانيَّة دعامتهُ الحريَّة . والظاهر ان ذلك المحامي لم يتمكن من اجابة طلبهِ امَّا لقلة بضاعتهِ او لعدم مساعدة الظروف لهُ

فعزم حينئذٍ ان يضع بنفسهِ ذلك القانون ولكن عدل عنهُ بعد ان خطَّ بعض بنودهِ لما عرف عدم كفاءتهِ لمثل ذلك التأليف

اجتماع اوربي بمراد

ولم تنفعهُ رحلتهُ الى اوربا الاَّ قليلاً بسبب الحجر الشديد عليهِ يؤيد ذلك ما قرأناهُ في احدى التآليف من ان احد كبار الاوربيين زار الاستانة العليَّة عام (١٨٧٣) وطلب مقابلة وليّ العهد والاجتماع بهِ بواسطة اعظم وزراء السلطان عبد العزيز فأُجيب ان من المستحيل اجابة طلبهِ وان السر اليوت سفير انكلترا رغب في الاجتماع بهِ فلم يحصل على امنيتهِ

ولما كان احبّ شيء الى الانسان ما منع عنهُ زادهُ جواب الوزير شوقاً للاجتماع بولي العهد فافرغ ذلك السائح جهدهُ وبذل ما عندهُ من الوسائل وابرز من الاصفر الرنان الذي هو داء لكلّ دواء خصوصاً في البلاد العثمانية فازال كل العقبات حتّى فاز بغرضهِ وجاء صديقاً حميماً لمراد افندي بعد ان حمل لهُ كتاب وصاةٍ بالثقة بهِ والاعتماد عليهِ وسألهُ اجابة طلبهِ بعد ان اطلعهُ على رغبتهِ الشديدة بمقابلة ولي العهد. قال. فلما رأى رغبتي الشديدة تبسم وقال — اضرب لك موعداً بعد ظهر الساعة السابعة على جسر اسطانبول — سمعاً وطاعة لا اتأخر ثانيةً. وفي الساعة المعيَّنة ركبنا زورقاً الى اسكدار فلما وصلناها ركبنا عربةً وتوجهنا نحو غابٍ وهناك اشرنا الى السائق بالانتظار وقلنا لهُ ان نزهتنا فيهِ لا تفوت الساعة ثم توغلنا بين اشجارٍ غضة حتَّى وصلنا الى سراطٍ يؤدي الى جفتلك (قوربقليدره) فتبعناهُ حتَّى وصلنا الى بناية نخيمة من حولها حاجز حصين ليس لها الاَّ باب كبير اما نحن

فتوجهنا الى وراء البناية حيث رأينا بابًا صغيرًا سريًّا فقرع رفيقي الباب واذا بعبدٍ قد ظهر امامنا فلما وقع نظرهُ على رفيقي انحنى الى الارض مسلمًا ثم مشى امامنا الى قاعة فسيحة حيث كان وليّ العهد بانتظارنا فدخلنا عليهِ بكل احتشام وتقدمنا اليهِ للسلام اتباعًا للعادة التركيَّة اما هو فتقدم الينا باسمًا وصافحنا على العادة الافرنجيَّة وامرنا بالجلوس فامتثلنا وتأملتهُ فاذا بهِ ممتلئ الجسم قصير القامة فيهِ جاذبيَّة عاطفة تقطر نظراتهُ لطفًا منظوم الاسنان . وكان يومئذٍ في الرابعة والثلاثين من عمرهِ يلبس ثوبًا افرنجيًّا رمادي اللون . ومن ثمَّ شرع ينهال عليَّ بالاسئلة المختلفة واحببت ان اقف على افكارهِ وما اثَّرت عليهِ رحلة اوروبا فقال اعجبني بين مدنها باريس وبين ممالكها انكلترا وبين ملوكها ملك بروسيا فسألتهُ عن سبب اعجابهِ بهِ فاجاب لما كنت ضيفًا عندهُ في بوتسدام خرجت ذات يوم باكرًا لانتشق نسيم الصبح في بستان القصر فرأيت على بعض خطوات مني رجلاً يحادث احد الحراس بلطفٍ

وانس فلا تسل عما اصابني من الدهشة لما عرفت ان الرجل هو الملك غليوم بنفسهِ الذي لما اقتربت منهُ تبسم والتفت الى الحارس مسلماً بكل لطف ودعة وتقدم اليَّ واكملنا نزهتنا سويَّة فأَثَّرت فيَّ وداعتهُ هذه وقلت هكذا يجب ان تكون الملوك وعزمت على الاقتداء بهِ

فاعجبني حديثهُ وسأَلتهُ رأْيهُ في الواجب الاول لنجاح الامم وباي شيء يجب الابتداء فقال في التعليم فهو وحدهُ يبدّد غيوم الجهل . والتعليم يجب ان يكون الزامياً مجانياً لا دخل لرؤَساء الدين فيهِ

ثم قال — هذا من اهم الامور في تركيَّا لطرد التعصب وسابدأُ بالتعليم لاصلاح المملكة فاشيّد المدارس العموميَّة ويكون التعليم فيها الزامياً يجلس على مقاعدها المسلم والنصراني واليهودي فيأْتلفون من نعومة اظفارهم ويعيشون كاخوة وليس كاعداء

قال فعجبت مما سمعت وازددت تعلقاً بوليّ العهد وطالت المفاوضة بيننا في مختلف من الشؤون

وخرجت من ناديهِ وفي النفس ميلٌ للبقاء عندهُ وسألني ان احرر لهُ عن سياسة اوروبا من باريس وهكذا ظللنا مدة ثلاث سنوات نتبادل المكاتبات (ونشرت جريدة الريبوبليك فرانسز قسماً من تحاريرهِ) ورغبت ان يكل اليَّ تهذيب ابنهِ ولكن حال دون ذلك امتناع عمهِ السلطان عبد العزيز

وكان عازماً ان يدعوني لانظم له شؤون التعليم وتعميمهُ في المملكة العثمانيَّة متى رقي منصب الخلافة ولم يحل دون ذلك سوى قصر مدة توليهِ العرش العثماني

وقدمت لهُ نسخة من كتابٍ كنت الَّفتهُ وطبعتهُ في بروكسل عام ١٨٣٥ وهو لكتاب الذي حصل لهُ شرف المنع من الدخول الى فرنسا ابان الامبراطوريَّة

وكان ذلك التأليف جمهوري النزعة حرّ المبدإ ضد كل سلطة فأخذهُ وقرأهُ بكل تمعن حتَّى انهُ نقل بعض فصولهِ الى التركية

وراق لديهِ خصوصاً ما كتبتهُ ضد الاسترقاق وقال

لي انهُ عازم اشد العزم على الغائهِ ومحو آثارهِ من تركيا مع ابطال الخصيان وهي الاهانة الاولى للطبيعة — واستعباد المرأة — وهي الاهانة الثانية للمدنيَّة

وكان يقدّر ما للمرأة من التأثير على الهيئة الاجتماعيَّة ولذا كان يرغب ان تجاري المرأة العثمانيَّة المرأة الاوربيَّة في علمها وكان يتذمر دائمًا من مرارة عيشهِ مع حرمهِ ويقول ان طاعتهنَّ العمياء تقتل الحب من اصولهِ وجهلهنَّ الاعمى يبدّد كل لذة بمسامرتهنَّ . انتهى ما اثبتهُ السائح

تنصيب السلطان مراد

وكان مراد افندي نائمًا ليلة ٢٠ ايار فذهب اليهِ حسين عوني باشا وايقظهُ من رقادهِ العميق وطلب منهُ ان يرتدي ثوبهُ على عجل فذعر مراد افندي من هذا وخاف ان يكون السلطان قد انفذ حسين عوني باشا للايقاع بهِ او القبض عليهِ

فسأله — ماذا تريد

قال انّنا احدقنا بالقصر ولا يمكن لعمك الفرار وسيعلم بعد قليل بانهُ مخلوع وان مراد الخامس هو وريثهُ الشرعي وخليفة الله على الارض

فلم يطمئن فؤاد مراد افندي لهذا الجواب وزاد جزعهُ فدفع اليهِ حسين عوني باشا فردًا وقال اذا كنت تخشى خيانة مني فخذ هذا وطير دماغي اذا بدت اقل اشارة مني فاقتنع قليلاً ونهض من فراشهِ ولبس ثيابهُ وتبع حسين عوني باشا وانحدرا نحو الرصيف حيث كان قارب بانتظارهما فتوجها بالقارب نحو مدرعةٍ بناء على أمر حسين عوني باشا ليبلغ ربانها أمرًا كان نسيهُ فهناك تعاظم قلق مراد افندي وظن ان الدارعة هي سجنهُ الابدي ولكن لحسن الحظ لم يطل حسين عوني باشا الاقامة في الدارعة حتَّى عاد وأمر البحارة بالتوجه نحو السر عسكريَّة. حينئذٍ اطمأَن فؤاد مراد افندي

فلما وصلا الى السر العسكريَّة هرع لاستقبال مراد

افندي الصدر الاعظم ومدحت باشا وشيخ الاسلام وغيرهم وللحال قرأوا خلع السلطان عبد العزيز ونادوا بولي العهد مراد افندي سلطاناً ثم طلبوا منهُ ان يوقع امراً باخراج السلطان عبد العزيز وعائلته من قصر (طولمه بغجه) الى (قصر طوب قبو) وللحال انفذوا ذلك الامر الى رديف باشا الذي تولى حصار قصر السلطان فلم يتأخر ثانية عن تنفيذهِ كما تقدم في صفحة ٣٩

ولما بزغ الفجر أُطلقت المدافع وطاف الناس ينادون في اسواق الاستانة وأحيائها يبشرون الامة بجلوس السلطان مراد على عرش بني عثمان فابتهجت القلوب فرحاً

وفي الغد حصلت المبايعة فأمر السلطان مراد ان يدخل عليهِ من يشاء الدخول كبيراً كان او صغيراً اميراً او حقيراً فدخلت عليهِ الجماهير من جميع الطبقات والرتب على اختلاف المذاهب وبايعوهُ الملك وتشرف الجميع بالمثول لديهِ ودعوا لهُ بطول البقاء

وفي اول يوم جمعةٍ بعد جلوسهِ خرج في حفلة السلاملك فركب عربة يجرها اربعة من جياد الخيل وسار الى طولمه بغجه فسلك طريق غلطه وعبر الجسر الى استانبول وبعد ان زار تكية طوب قبو التي يوجد فيها ثوب صاحب الشريعة الاسلامية ترجل من العربة وامتطى صهوة جوادٍ وتوجه الى جامع ايا صوفيا وبعد ان صلى عاد الى القصر في نفس الطريق التي جاء منها . وحدّث ولا حرج عن احتفال الشعب بهِ ذهاباً واياباً حتّى لقد ترك الاجانب جميعهم اشغالهم وخرجوا يشاركون العثمانيين في فرحهم بملكهم المتجلي لهم فملأ الناس الفضاء بالادعية والهتاف وهم ينادون (فليحيَ السلطان مراد) وهو نداء لم يسمع للسلطان عبد الحميد لانهم لا يرونهُ ولا يراهم ومن فتح فمهُ للدعاء حسبوهُ يقذف من فيهِ قنابل الديناميت فجعلوا الموت جزاءهُ وكنت ترى النساء يرمينَ الناس بالزهور وبلغ الفرح من الامة العثمانية ان الشعب اراد ان يجرّ عربة السلطان بدلاً من الخيل ولم يرد في تاريخ الدولة العثمانيّة

مثل هذا الفرح ولا ان الشعب اظهر مثل هذا التعلق باحد سلاطينهِ اما جلالتهُ فمنعهم بلطف عن جر العربة وكانت اسرتهُ تبرق سرورًا بما رآهُ من بهجة الشعب فأَخذ يسلم عليهم باسمًا

وكان السلطان مراد قد تعهد لعبد العزيز ان يحسن معاملتهُ ويكثر العناية بهِ فلما بلغهُ خبر موتهِ صاح باعلى صوتهِ (خنتني ياحسين عوني وقد البستموني ثوب عار لا يفنى الى الابد لانني تعهدتُ لهُ ان احفظ حياتهُ فيا للعار) واوقع السلطان مراد التهمة على حسين عوني ورديف باشا وكان يأبى ان يصدّق ان عبد العزيز قد انتحر بل كان يعتقد انهُ قضى بيد جانٍ اثيم . واسفَ مراد لموت عبد العزيز اسفًا عظيمًا وبرَّح بهِ الحزن حتّى انهُ كان يبكي مرارًا كثيرة واستولت عليهِ السويداء وعبثًا حاول اعوانهُ وحاشيتهُ ان يخففوا حزنهُ فقد خيل لهُ ان اوربا المتمدنة تتهمهُ بقتل عمهِ او الموافقة على التخلص منهُ باعدامهِ ولم يتوفق الى اناس يعرفون كيف يزيلوا من رأسهِ هذهِ الاوهام

وفي ٥ تموز (يوليو) نهض من فراشهِ وقد امتقع لونهُ واصفرَّ وجههُ وظهرت عليهِ دلائل التعب والارق فاصبح من ذلك اليوم غير مسؤول عمَّا حدث لانهُ كان يكرر قولهُ اني اريد ان استقيل وان اذهب الى فرنسا او ايطاليا التماساً للراحة والعافية. وما زال على الحالة الَّتي ذكرناها حتَّى حدثت تلك المعركة الَّتي هجم فيها حسن الچركسي على حسين عوني باشا ورفاقهِ كما سبق القول فاستلم زمام السلطنة اذ ذاك مدحت باشا ورشدي باشا وشيخ الاسلام خير الله افندي وأَجلوا حفلة تثبيت السلطان في جامع السلطان ايوب الى شهرين بالتسويف والتأْخير وهي الحفلة الَّتي فيها يشتمل السلطان الجديد سيف السلطان عثمان موسس السلالة العثمانيَّة. ونشروا بين الناس اشاعة مآلها ان السلطان مراد مصاب بالحمى وانهُ قد ظهرت في وجههِ بعض بثور ودمامل لا يوافق معها خروجهُ ايام الجمعة لحفلات السلاملك في عربة مكشوفة فكان يخرج في عربة مقفلة

وظلَّ مرضهُ الحقيقي غير معلوم من الناس الى ان اذاعتهُ جرائد اوربا لكنها بالغت في وصفهِ واول جريدة ذكرت مرضهُ هي جريدة تصدر في جنوبي فرنسا نشرت رسالة منسوبة الى الدكتور كابليوني طبيبهُ الخاص الذي كان جهلهُ اعظم سبب في خسارة المملكة العثمانيَّة احسن السلاطين واكثرهم عدلاً وحريَّةً وتمدُّناً ويقول قوم ان الطبيب المذكور كان شريكاً لبعض ذوي الغايات فلم يسعَ لنجاة سيدهِ

كل هذا جرى وسفراء الدول لم يجدوا فرصة لتقديم اوراق تعيينهم للسلطان الجديد فساءهم ذلك وتذمروا واعلن الجنرال اغناتيف انهُ يزايل الاستانة ولا يرجع ما لم يتربع في دست الملك من يصلح لهُ. وزاد في الطنبور نغمة اختلاف الوزراء في مسئلة السرب والجبل الاسود واذ ذاك ذهب مدحت باشا (ولا يعلم اذا كان ذهابهُ مباشرةً من تلقاء نفسهِ او باتفاق مع اخوانهِ) وفاوض عبد الحميد افندي ولي العهد (السلطان الحالي) وسأَلهُ

عما اذا كان يتولى كفالة الملك الى ان يشفى شقيقهُ فاجاب عبد الحميد (ان امراً كهذا لم يسبق حدوثهُ في السلطنة فلا اكون انا البادئ) قال مدحت وهل نقبل ان تكون سلطاناً ومراد حيًّا يرزق . اجاب عبد الحميد (لمَ لا اذا كان لا امل من شفائهِ) وعقيب هذه المفاوضة استدعي الدكتور ليور سدوف رئيس مستشفى المجانين في ڤينا فجاء الى الاستانة وتوجه توًّا الى سراي طولمه بغجه ولم يسمحوا لاحدٍ من الناس ان يقابل الطبيب الاَّ بعض زملائهِ وبعد ان رأى السلطان مراد منعوهُ عن نشر تقريرهِ ولم يعلم من امرهِ الاَّ انهُ خطَّأ طبيب السلطان الخاص ولامهُ على انهُ فصدهُ ووصف لهُ النزهة في البحر وتعهد ان يشفيه في شهرين اذا عملوا بموجب اوامرهِ فنشرت جرائد الاستانة ذلك يومئذٍ فاطمأنت افكار الشعب واخذ السلطان مراد يركب كل يوم باخرة ويتنزه تارةً في بحر مرمره وطورًا في البحر الاسود وذكرت جريدة الليفانت هرالد يومئذٍ السبب الذي من اجلهِ لم ينشر تقرير الدكتور

ليدرسدوف وشجبت الحكومة لانها لا تصدر رسالة يومية
عن صحة السلطان كما يجري في اوربا فاظهرت الحكومة
بعض محتويات التقرير وكتمت الباقي وفيما كان الناس
يرجون ان يشفى حالاً طرأ ما يعجّل في خلعهِ واختلف
الرواة في الاسباب . واولاها بالتصديق ان مدحت باشا
لما رأى عدم تمكنهِ من اجراء ما يريد لمقاومة رشدي باشا
الصدر الاعظم وكان يريدان يحل مسئلة تركيا الفتاة بذاتهِ
ورأى ان احسن حل لها وجود حكم فاصل لخلافهما الدائم
فاتفقا على ذلك وطلبا من شيخ الاسلام خير الله افندي
اصدار فتوى الخلع فلم يتأخر عن ذلك وبعد ثلاثة ايام
شاع بين الناس خبر خلع السطان مراد الخامس وذلك
يوم الخميس الواقع في اول سبتمبر فخرج السلطان عبد
الحميد الى شارع بيرا وقد احدق بهِ الوزراء وتوجه الى
الصدارة العظمى وعند ظهيرة النهار قضيَ الامر واطلقت
الطوابي ماية مدفع ومدفع معلنة تسنم عبد الحميد عرش
الدولة العثمانيَّة ولا تسل عن دهشة الشعب واسفهم . اما

مراد فانهم نقلوهُ من سراي طولمه بغجه الى سراي جيراغان ولا يزال فيها الى الآن

عبد الحميد الثاني

ان ضعف صحتهِ حال دون تلقيهِ العلم وكان يخشى عليهِ من السل لان والدتهُ توفيت بالداء المذكور واول دروسهِ بدأ بها مع أخيهِ مراد تحت رعاية والدهما عبد المجيد الاَّ ان عبد الحميد لم يتمكن من اتقانها فاكتفى بدرس اللغة التركية والقرآن الشريف . وحدث انهُ تعرَّف بخياطة من اهالي البلجيك كانت بارعة الجمال اسمها فلوره كورديه فاقنعها باعتناق الدين الاسلامي وجعلها بين حرمهِ وهكذا علمتهُ مبادئ اللغة الفرنساوية . وتمكن طبيبهُ الخاص مافريوني باشامن اقناعهِ بوجوب ترك المشروبات الروحية ففعل واهتمَّ بالامور الزراعيةَّ في ايام عمهِ عبد العزيز وهكذا انقذ حياتهُ لكنهُ لايزال ضعيف البنية وهو اسمر اللون ولد من ام ارمنيةً من جورجيا فمنذ تولى العرش

بدأت حاشيتهُ تدخل عليهِ الغش والخداع واخترعوا كل يوم خبر مؤامرة ضدهُ وان السلطان مراد لهُ حزب قوي يريد ارجاعهُ فشدَّد عبد الحميد في التضييق على اخيهِ واهلك ونفى العدد الغفير من الذين اتهموا بالانتماء اليهِ

مفاوضة مع مراد

اما مراد فانهُ توجه الى الصحة ونقه من دائهِ بعد مضي اربعة اشهر على خلعهِ لكنهُ كان يشكو من المعاملة السيئة والتضييق عليهِ وعدم الترخيص لاحدٍ من اصدقائهِ بمقابلتهِ . على ان احدهم تمكن من الدخول اليهِ في سجنهِ بواسطة المرهم الذي يجبر كل كسر في تركيا وهذا ما قالهُ صديقهُ . تأثرتُ كثيرًا من بياض شعرهِ في مدة قصيرة فقال لي انك عرفتني منذ سنة ونصف براس شاب والآن يدهشك ان تراني كهلاً قد كلل الشيب راسي وربما خيِّل لك ان ذلك حادث فجائي طرأ عليَّ كما حدث لماري انتوانت (ملكة فرنسا) او انهُ من تأثير السجن ولكنك

غير مصيب في ظنك هذا . كان في رأسي بعض شعرات
شائبة قبل وفاة عمي ورغبت ان ابقيها على حالها اشارة
الى سن الكمال فأبت والدتي ذلك وقبل ان صرت
سلطانًا جاءتني بسائل غريب وكانت تغسل بهِ شعري
مرارًا فعاد الى سوادهِ الاصلي ولكن نشأَت عنهُ آلام شديدة
في رأسي ويقول الدكتور كابليوني ان اسباب ذلك غير
ما ذكرتُ اما الدكتور ليدرسدوف فيقول ان الآلام
ناشئة عن نيترات الفضة ومواد أُخرى مضرَّة كانت في
ذلك السائل فلما انقطعتُ عن استعمالهِ انقطع الالم

اما اخي عبد الحميد فانهُ لم يدرك مركز المملكة الحرج
وهو لم يقرأ شاكسبير ولم يتساءل كما يتساءل هامليت

To be or not to be, that is the question.

وهو لا همَّ لهُ الآَن الا ان يمنع مراد من الرجوع الى العرش
وهذا الذي يمنعهُ عن النوم ويسبب لهُ الارق واعوانهُ
يبالغون لهُ في وصف انتصارات جيوشهِ (وكان الحديث
في غضون الحرب الروسية) ويكتمون عنهُ اخبار الهزيمة

والفشل. يقوده محمود باشا داماد كما يشاء ومحمود على شاكلة محمود نديم باشا ولكنهُ اشد جهلاً . وقد سجن اخي جميع الذين يمكنهم ان يصرّحوا بالحقيقة على مسمع منهُ . قال المخبر — وهنا توقف مراد عن التكلم قليلاً ثم سألني — ماذا يفعل مدحت باشا الآن في اوربا (وكان منفياً) وكيف حال كامل باشا واين هو الآن كسَّاب افندي (المحرر المشهور الذي كان قد حكم عليهِ بالسجن ٣ سنين لانهُ نشر صورة هزليّة تمثل العوبة اطفال (كراكوز) مقيد الايدي والارجل مكبلاً بالسلاسل وكتب تحتهُ (حريّة المطبوعات ضمن دائرة القانون) ثم قال ان كسَّاب افندي يجهل السبب الحقيقي الذي من اجلهِ صدر عليهِ هذا الحكم الصارم واني مطلعك عليهِ . فاعلم ان اخي عبد الحميد حاقد عليهِ من قديم الزمن لانهُ في زمن عمي عبد العزيز ترجم الى اللغة التركيّة رواية البخيل تأليف موليير وسمَّى هرباكون باسم (بنتي حميد) ولما كان اخي مشهوراً في عائلتنا بامساكهِ واقتصادهِ ظن انهُ المراد من هذه التسمية فحقد على كساب واضمر لهُ

الشرّ من يوم تمثيل الرواية المذكورة . واذكر انهُ دخل عليَّ في ذلك الحين والحنق يكاد يخنقهُ وانهال على كساب باللعنات والشتائم فقلتُ لهُ ان المترجم لايعرّض بك لان الرواية قديمة العهد من جيلين الفها رجل فرنساوي اسمهُ موليير وان الاسم (حميد) هو اسم خوجه اشتهر في الاستانة قديمًا ببخلهِ كما اشتهر نصر الدين خوجه بهزلياتهِ فاجابني عبد الحميد — ولكن كان يقدر كسّاب ان يسمي بخيلهُ مراد قلتُ صدقتَ يا اخي ولكن لو سماهُ كذلك لفقد الاسم كل تأثير واهميّة قال لا يهمني تأثير الاسم واقل ما فيهِ انهُ يكون قد ابتعد عن التعرُّض لي ولاهانتي ولم يخطر لي ببال يامراد انك انت الذي اوحيت اليهِ بهذه الرواية او هذا الاسم.فلما رأيت ان الحدَّة استولت عليهِ اقسمتُ لهُ بكل محرجة من الايمان وبالقرآن الشريف ان لاعلم لي بما فيها فبرّأني يميني ولكن لم يبرّئ كساب افندي ومن ذلك الحين حقد عليهِ. وانا ادرى الناس بطباع اخي لانهُ متى اعتقد في امرٍ ما كان اقناعهُ بعدم

صحتهِ من المستحيلات . قال الصديق فسألتهُ عن رغبتهِ في الرجوع الى العرش قال ان الشعب هو الذي تركني في في ساعة الحاجة حتى أُلقيت في هذا السجن كمجرم ولذلك على الشعب دون سواهُ ان يأتي ويحل قيودي وللشعب كل الحق باعلان رغبتهِ في ارجاعي واني انتظر هذا من اصدقائي ولا افعل شيئاً من تلقاء نفسي بل احتمل سجني بصبر حتى انني أحتمل الدسائس الموجهة الى حياتي الى ان يأتي الله بالفرج

ايضاح للقاري

قد بقي شيء كثير من الحقائق عن احوال سلاطين تركيا وسأذكرهُ مفصلاً في الجزء الثاني الذي سيكون اكثر اهمية من هذا الجزء لاحتوائه على حياة السلطان عبد الحميد وكيفية معيشتهِ واسرافهِ ومعيشة الحرم السلطاني ودسائس البلاط وغير ذلك من الاخبار العجيبة

من مراد الخامس الى عبد الحميد الثاني

هذا تعريب الكتاب الذي كتبهُ مؤخرًا السلطان مراد الخامس الى السلطان عبد الحميد القابض على زمام الملك ويتضح من مطالعتهِ انهُ كتبهُ وهو سجين الظلم والغدر في سراي جيراغان « على قطع اوراق منثورة وبأواخر اقلام مكسورة » وقد وصلت نسخة هذا الكتاب اليَّ في اوائل شهر اوغسطس (آب) سنة ١٨٩٥ بعد ان رحلت رحلة طويلة وبعد ان مرَّت بين ايدي عدد من معارفي وهم لا يعلمون ما فيها فركبت البحار واجتازت البراري والقفار تارةً في البواخر وطورًا مع القطار والذي ارسلها اليَّ خائف عليها وعليَّ . اما كيف حصلتُ عليها وكيف نجت من خزائن الاسرار حتى تيسر نشرها في هذه الديار فذلك سرٌّ لا يعرفهُ انسان لان في افشائهِ موت كثيرين والعياذ بالله . وهذا الكتاب خطتهُ يد السلطان مراد بين الساعة الاولى والخامسة من صباح يوم الجمعة ولا ادري تاريخ الشهر وانما اعلم انهُ من عهد قريب . وجل ما علمتهُ انهُ كتب على على الاوراق البيضاء الَّتي توجد عادةً في اوائل الكتب واواخرها وان السلطان السجين انتزع الاوراق الموجودة في قرآن لديهِ . ومما زادني سرورًا بهذا الكتاب ان مرسلهُ اليَّ يقول في كتابهِ الخصوصي « وبمثل اجتهادي للحصول على هذا الكتاب وتمكني من ذلك ساجتهد لاوصل نسخة من كتابكم « سر مملكة » الى حضرة ولي العهد ان شاء الله »

وقد نشرت هذا الكتاب في عدد ٤٧ من جريدتي المشير بتاريخ

٢١ اوغسطس (آب) سنة ١٨٩٥ واذكر ان حضرة وطنينا الفاضل خليل افندي غانم ترجمهُ الى اللغة الفرنساويَّة ونشرهُ في جريدتهِ الكرواسان . وهذا نص الكتاب

اخي — ان المصائب ٱلَّتي أُصيبت بها دولتنا قد اوجبت تأثر الاشخاص الذين تعينوا للمحافظة عليَّ وأُمروا بالتشديد في مضايقتي مع عموم عائلتي فحملهم تأثرهم على تجسس الحوادث الحاضرة وايراد ذكرها في خلال اجتماعاتهم اما لاهتمامهم بمستقبل الوطن او لاهتمامهم بمستقبلهم الذاتي . فانتشرت اخبار الحوادث الاخيرة بين هؤلاء المحافظين والخدم حتى وصلت اليَّ . ومجمل ما تمكنت من الوقوف عليهِ من الاخبار المتداولة بينهم هو ان الشدة ٱلَّتي عومل بها الارمن في ولاية بتليس بلغت اخبارها اوربا فطلب السفراء من جلالتكم بيان الحقيقة فأقدمتم على تكذيبها. وعليهِ ارسلت هيئة تحقيقيَّة مؤلفة من بعض مأموري الاجانب فاثبتوا وقوع انواع من الجرائم بل تمكنوا من القبض على بعض اوراق يستفاد منها ان ما وقع في تلك الانحاء انما وقع بارادة سنيَّة وعليهِ هاجت الافكار العموميَّة وتألفت لجان شتى في اوربا اهمها في مدينة لندن توالت بها الاجتماعات وتقررت من قبلها الالتماسات الى الحكومة الانكليزيَّة فأقدم الانكليز على التداخل وتبعت فرنسا وروسيا مسلكهم وباشتراك الدول الثلاث وضع تقرير ورفع الى جلالتكم للتصديق عليهِ مع ان محتوياتهِ مضرة باستقلال الدولة

وخلاصة ما بلغ مسامعي عن هذا التقرير انهم يطلبون جمع ولايات ارزروم ووان وبتليس وخربوط وسيواس الى ادارة واحدة

ووضع نظامات مخصوصة بها وترتيب مجالس مخصوصة في مراكز الولايات والالوية اكثرها من الاجانب للنظارة على انفاذ احكام النظامات المذكورة وتأليف مجلس عام في الاستانة مؤلفاً اكثره من الاجانب ايضاً ويكون لهُ حق النظارة العمومية الى غير ذلك من الاشاعات آلتي لا تضارع السابقة اهمية

اخي . يجب علينا ان نتحرَّى الاسباب الداعية لتهيج اوربا وتداخلها في داخليتنا لنقف على الدواء الناجع . انت تعلم ان المرحوم السلطان عبد العزيز نهج في الادارة نهجاً سيئاً حتى اواخر سلطنتهِ فاسقط اعتبار الدولة المالي وتعلم ان كل ما تعهدنا باجرائهِ في ممالكنا مما تدعو اليهِ المدنية ويوجب تقدم البلاد لم ننجز منهُ شيئاً سواء كانت رسمية او غير رسمية وتعلم ايضاً ان هذه الاحوال اوجبت اخيرًا شق عصا الطاعة ورفع لواء العصيان في قطعة الروملي وكان علينا ان نستيقظ وقتئذٍ وننهب من غفلة رقادنا ونتخذ الذرائع الجدية والسريعة فأهملنا الامر وسرت شعلة الاختلال واندلع لهيبها بما اتينا من الاعمال السيئة . وكانت النتيجة ان ذهب السلطان ضحية داعيات الزمان الناجمة عن سوء الادارة . واهتمَّ اركان الدولة وقتئذٍ بتغيير شكل الادارة وتوفيق اصولها على الادارة الاوربية آملين بذلك رفع الخطر الكلي عن الدولة والمملكة . وقد اجتمعت قبيل جلوسي على تخت السلطنة بأعاظم اركان الدولة وقتئذٍ وخصوصاً مع مدحت باشا وتبادلنا الافكار بالذات وبالواسطة فأجمع الكل على لزوم اعلان القانون الاساسي وتحوير شكل الادارة الى الاصول الشوروية ولم يكن

بين هؤلاء سوى رشدي باشا المتأصلة في نفسهِ العادات القديمة والذي يحسن ان يقال عنهُ انهُ كثير الوسواس فقد كان يخشى فتنة عامة الناس اذا اعلن القانون الاساسي زاعمًا ان موضوعهُ قد لا يوافق احكام الشريعة المطهرة . على ان اصول الادارة في صدر الاسلام بل في زمان حضرات الخلفاء الراشدين ثبت ان المشورة كانت اهم واقدس مبادي الاسلام فبينتُ لهم ذلك وذكرتُ ان انقاذ هيئة الملة والدولة يتوقف على اتخاذ التدابير اللازمة بقوّة وثبات بدون التفات الى ما يقدّمهُ عامة الناس من الاعتراضات الواهية الّتي لا تطابق حقائق الاحوال وضرورات الزمان . على ان هذا الفريق من الناس متى رأى النتائج الحسنة يكون اشد سرورًا من سواهُ . فان اثقال سوء الادارة يقع معظمها على العامة . واقمت دليلاً على ما قلتهُ من الاحوال الّتي ظهرت اثناء نشر الخط السلطاني الذي وضعهُ حضرة والدنا ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان وصدق الجميع وقتئذٍ على قولي ثم عقب ذلك خلع السلطان عبد العزيز الاّ ان بعض الوكلاء وفي مقدمتهم رشدي باشا وعوني باشا ما عتموا ان رجعوا عن رأيهم وطلبوا بقاء الادارة الحاليّة مدة مع اجراء بعض اصلاحات . واخذ بعض المتعصبين الذين لا يفقهون شيئًا من احوال الدولة في معاكسة الافكار وقام آلنا والحرم السلطاني ايضًا يعاكسون نشر القانون الاساسي بدعوى انهُ مضر بحقوق السلطنة ولا ريب انكم تتذكرون ان اهم هذه المفاسد واقواها جرى من طرفكم بواسطة محمود باشا صهرنا

وتعلم ايها الاخ انهُ في خلال هذا الاضطراب داهمنا المرض واشتدَّت وطأتهُ بنا داخل انواع التداوي من الفساد (تظهر صحة قولهِ هذا لمن قرأ في فصول سر مملكة عن استعمال السائل لصبغ شعرهِ) واذ ذاك قبضتم على زمام الملك وحينئذٍ مال رشدي باشا بافكارهِ الى مدحت باشا وعظمت مصائب الدولة فتيسر لكم قبول القانون الاساسي ونشرهُ فاطمأنت قلوب الامة العثمانية وقل الهياج في اوربا . على ان هذه الحياة الجديدة للدولة عرض عليها داء الاستبداد المستقرّ في طبيعتكم فاوقعها في خطر الموت ولما كان وجود مدحت باشا مانعاً من اجراء ما تضمرون بدأتم اعمال القانون الاساسي بجناب مؤسسهِ الى السراي اذ كان في الصدارة العظمى واقفتموهُ اولاً ثم ابعدتموهُ واخرجتموهُ من الممالك العثمانية وكانت النتيجة ان اوربا علمت انكم تضللونها فقامت قيامة الافكار فيها ووقعت الامة العثمانية في ورطة اليأس . وعقب ذلك الحروب المتوالية مع الجبل الاسود والصرب والبلغار والروسية وفي هذه الحروب ما فتئت الاوامر المضرة التي كانت تصدر من السراي (يلديز) تسوق جيوشنا الى المواقع الخطرة وتساعد على اهراق دمهم عبثاً حتى تشتت شمل الجيوش وجيء بجيش العدو الى مركز السلطنة

ومع ان الدولة اعتادت منذ قديم الزمن ان تجمع اركان الدولة في ابان الشدة وتستطلع آراءهم ومع ان القانون الاساسي كان قد أُعلن رسمياً فقد نظر الى المبعوثين وقتئذٍ كاعداء ولم تؤخذ افكارهم في المسائل المهمة الاَّ لما بلغ جيش العدو موقع ايا استفانوس فأُحضر

البعض من المبعوثين الى السراي وحالما تفوه اثنان منهم بالقول الحق لم يكن من المرائين الا ان اشبعوهما ضرباً والقوهما من رأس السلم الى اسفل . وعقب ذلك صدور الامر بفض مجلس المبعوثان والغاء القوانين واقتصر على العمل بقانون البلدية واما سائر القوانين فبقيت مهملة وفي جملتها قانون المطبوعات الذي هو الواسطة الاولى لنجاح الممالكة وكان نصيب الذين نطقوا بالحق من المبعوثين في ذلك الاجتماع الحبس والنفي الى بلادهم ولم يكتف بذلك بل صدرت الاوامر الخفية الى الولاة بالتضييق عليهم اينما وجدوا وهكذا كان نصيب بعض الباشوات الذين اكتسبوا ثقة الملة وانتخبوا لمجلسها ان تفرقوا ايدي سبا . وبعد ان أُلغي المجلس بالصورة المذكورة ألتي نفر منها الخلق جيء بمن كان سيئ الخلق قبيح الخصال مذموم المبادي ومن تكرهه الامة اجمع فقرِّب من جلالتكم عدد غير قليل ظنّاً بانهم يلبثون على صدق الخدمة لشخصكم وأُلقيت اليهم مراكز السلطنة في العاصمة والولايات

وتأسست وقتئذٍ في الاستانة قاعدة النفي بغير محاكمة الامر الذي لم يسبق حدوثهُ في دولة ما او في عصر من العصور ومما زادنا أسفاً انهُ قد صدرت اوامر عديدة الى المأمورين تساعدهم على ايقاع هذه المظالم وتقررت الادارة العرفية بلا موجب في الاستانة وبقيت الى يومنا هذا بحيث لو فرض وجود معذرة لاعلانها وقتاً ما فلا يوجد عذر لدوامها. ثم أُعطيت اهم واردات الخزينة الى فريق من الاراذل ليتجسسوا الخلق ويعرضوا ما يتفوَّه بهِ الناس بحق جلالتكم فكانت هذه الوظائف وسيلة لزيادة سرورهم فاخذوا في اختلاق الاكاذيب

بما يرفعون كل يوم من التقارير حذرًا من ضياع رواتبهم اذا تأخروا يومًا واحدًا . وانتم تعلمون كم خرب على يدهم من العائلات وكم نفي من الرجال وكيف اصبح الاهالي ينظرون الى الدولة بغير اطمئنان وبقلوب واجفة وهذا وحدهُ كاف لخراب اية دولة كانت. ولم يقف الامر عند هذا الحد بل عم الظلم فصدرت احكام الادارة العرفيَّة ودواوين الحرب وبعض المحاكم ايضًا بحبس ونفي الآخرين وتعاقبت اوامر السراي وباب السر عسكريَّة ونظارة الضابطة وضابطة بيوغلي وبشكطاش واسكدار معلنة باجراء المظالم ففقد من الخلق عدد عظيم عدا عمن اغرقوا في البحر او القوا في الآبار وادُّعي انهم قد فروا هاربين . كل هذا يذكرني بالمباحثة الَّتي جرت في مجلس المبعوثين لما بلغ افرادهُ طرح عدد من طلبة العلوم في البحر. فهذه الاعمال جميعها اعمال منتقم جبار ما جاء لعمار الملك بل لتخريبهِ. ولا بدع اذا قلَّت جرأة الناس عن المجاهرة بالقول الحق وفتحت ابواب الرشوة ولا جرم ان الباب العالي وسائر الدوائر تصبح والحال على ما ذكر اسمًا بلا مسمى وان تنحصر الادارة جميعها بسراي يلديز ويكون الوزراء بمثابة الخدم وتجري المزايدة علنًا في السراي على المأموريات والامتيازات وان يعم الخراب اصول الدولة وفروعها :
وانتم تعلمون ان السلطان المرحوم عبد العزيز كان يتناول من الخزينة ٧٥ الف ليرا شهريًّا واخيرًا حين جلوسي تركت منها ١٥ الف ليرا وتركت ايضًا جميع الاملاك السلطانيَّة لخزينة الماليَّة وتعلمون ان واردات الدولة كانت وقتئذٍ اكثر من وارداتها اليوم لانهُ لم يكن

قد انفصل عنها القسم المهم بداعي سوء الادارة ٱلَّتِي وقعت . ومع ذلك ابلغتم تخصيصاتكم الى ٩٥ الف ليرا شهريًّا ولم تكتفوا بما عقدتم من الشركات الخفيَّة مع التجار وادارات الالتزام فشكلتم ادارة الاراضي السنيَّة فجعلتم ادارة خاصة ضمن ادارة عموميَّة وحكومة مستقلة وجعلتموها منزهة عن التكاليف ضمن الحكومة العثمانية فألحقتم بهذه الادارة كل الاراضي والمناجم المهمة ٱلَّتِي تأتي الخزينة بمنافع جمة . ومع ان الاوقاف نفسها مكلفة ببعض التكاليف لبيت المال فقدمنعت عن الاراضي السنيَّة رسوم الاعشار والويركو والحيوانات وسائر التكاليف العائدة للخزينة . وبما ان جميع القرى والقصبات العائدة للدولة تؤدي انواع الرسوم والتكاليف الاميريَّة وتحمل من جهة ثانية مظالم المأمورين والضابطة ولدى انتقال الاهالي لخدمة الاراضي السنيَّة لا يكلفون شيئًا الَّا اداء الخمس عن المزروعات وبعض رسوم المواشي كاد الخراب يعم بلاد الدولة وينحصر النجاح بالقرى التابعة لادارة الاراضي السنيَّة وتكاد البلاد تصبح مزرعة والتبعة زرَّاعها . فان الزراع في الاراضي السنيَّة لا يتحملون شيئًا خارجًا عن درجة اقتدارهم حالة كون الاهالي الذين تحت ادارة الدولة رأسًا يتحملون ما لا يطاق من مظالم المرتكبين الذين سلمت اليهم مهام الادارة والاعمال . وبما ان واردات الخزينة تنهب سرًّا وعمال الدولة يعملون على ابادة الرعيَّة ولا يفتكرون الَّا بما يحصلونهُ لانفسهم اصبحت ممالك الدولة دمارًا والتبعة في ضنك شديد وما ترك نوع من انواع المظالم ٱلَّتِي يخجل

منها آلنا الكرام في نظر تاريخ الاّ واقدم على اجرائها فزاد اضطراب الخلق وبلغ منهم اليأس اقصى درجاتهِ واذا بالمسألة الارمنيّة قد ظهرت للعيان فكانت خاتمة الاحزان . ولقد كان من المناسب في هذه المسألة اجراء بعض التدابير وذلك ان يؤخذ من اقدم على هذه الاعمال الفظيعة تحت المحاكمة وتعيين اشد عقاب لهُ بدلاً من انكار الفظائع ٱلّتي حدثت واخفائها. وان لا نصرّ على اتباع الاستبداد الذي ادى بالمملكة والدولة الى هذا الحال . بل نسرع لاعادة القانون الاساسي . ومن العجب الاّ يخطر هذا الفكر على البال وان يعتاض عنهُ بأفكار سقيمة واعمال دنيئة تضحك منها اوربا وتبكي الامة معاً

اخي — : ان الاحوال قد ساءت وزمن الظلم والاستبداد مرّ وما بقي احد يغترّ بالكذب والنفاق ويحتمل الظلم والعنف فدع عنك الغفلة وتجنب سوء الفكر وانهج مسلكاً قوياً وتمعن بما تؤول اليهِ حالة الدولة والمملكه ممّا يعود ضررهُ على آلنا. وابعد من حولك كل منافق مراءٍ يمتص دم الملة واعلم ان الخل الوفي لنا انما هو الامة وانهُ لا يدفع عنا العناء الاّ اتفاقها . ثم تجنب يا اخي الكذب والظلم واسرع الى اصلاح الادارة فان هذا هو الذي يسرّ تبعتنا ويرضي الامم الاوربيّة

أخي : كتبت لك قبلاً ان الخلق لا يحكمون بالجبر والظلم وقد علمتك الحوادث الاخيرة صدق هذا القول . أخي : لقد ابعدتَ عنك جميع ارباب الحمية الصادقين للدولة والوطن وسلمتَ زمام الدولة والسلطنة لا داني الناس الذين لا يبحثون الاّ عن منافعهم

الشخصيَّة . ولا انكر انك قد اهتممت بجميع الامور حتى حصرت ادارة الدولة بشخصك وتوقفت الاعمال كبيرها وصغيرها على ارادتك . غير ان هذا الفكر مضر بادارة الدولة ولا يمكن لفردٍ ما اقامةُ . وقد اوجب انحطاط الدوائر الرسميَّة وتعطيل امور الدولة وتسليط الحشرات الموجودة في المابين على جميع الادارات والولايات . والتاريخ يثبت ان السراي السلطانيَّة كانت مدرسة للادب والمعارف والفنون والادارة. وقد اصبحت الآن بالمسلك الذي نهجتهُ ملجأً للاشقياء الذين يجرون في نفس السراي انواع العذابات بحق الابرياء الذين يقبض عليهم بواسطة الجواسيس ويؤتى بهم الى المابين لاستجوابهم عما أُدعي عليهم بهِ من التفوُّه بحق جلالتك فيقعون ولو ابرياء تحت طائلة العذاب الشديد الذي يبكي عالم الانسانيَّة

أخي : الزمان يمرُّ مرَّ السحاب والحال كثيرة الخطارة وليس لك سبيل الى السلامة والنجاح الأَّ باعادة القانون الاساسي الذي طنطنت بهِ الجرائد اعواماً كانهُ احسان سلطاني ثم أُلغي لغير سبب الأَّ غاية البقاء على الاستبداد. فأَجمع المبعوثان وأَحيي قلوبهم المنكسرة بالتلطيف واسعَ في تحسين الادارة بما امكن من السرعة ولا تمنع المعدّين للجلوس على كرسي السلطنة من آلنا من تحصيل العلوم والمعارف والوقوف على احوال الرعيَّة ومداخل السياسة ومخارجها فانك بالحجر عليهم في سراياتهم تحجب عنهم نور المعرفة وتمنعهم من تحصيل الوسائل ألَّتي يتمكنون بها من عمار وتقدم البلاد ومجاراة العصر . فابعث بهم الى المكاتب واستخدمهم في المناصب . ولا تمنعهم

من الاختلاط ولا تخف منهم فان المجادلات الشخصيَّة قد مرَّ زمانها والزمان قد تغير والاحوال الماضية لن ترجع . واعلم ان اصلاح الادارة لا يتم بالمواعيد ولا بالتدابير السقيمة وان اوربا لا تنخدع ولا تسكت بعد وان الامة العثمانيَّة لا ترضى يبقاء القديم على قدمهِ واذا كان مركز الادارة قد اختل ولم يبقَ لك من تعتمد عليهِ او تأتمن جانبهُ من الاصدقاء والاغيار والتبعة والاجانب فمن العبث ترك الادارة المركزيَّة على هذا الحال والاهتمام فقط باصلاح الولايات . ان ارسال المأمورين والقوميسيريَّة وغيرهم بألقاب متنوّعة لا يجدي نفعاً ولا يدفع ضرًّا . ولا ينجم عنهُ الاَّ اضاعة الوقت عبثاً واستهزاء العالم

اخي : اسرع في معاقبة الذين ارتكبوا الفظائع بحق الارمن ايًّا كانوا واسرع بالاتفاق مع مبعوثي الامة واركان الدولة في اجراء التدابير الجديَّة ألَّتي تنقذ الدولة من الانقراض ثم اترك الاستبداد واجتنب سوء الادارة والغ ادارة الاراضي السنيَّة وأعد املاكها للخزينة واجعل مرتبات جلالتك على قدر تحمل الخزينة

أخي : اتبع المنهج الذي ابينهُ لك واعلم انك اذا لم تفعل فانك تسوق الدولة والامة من مصيبة الى اعظم حتى تؤدي بها الى المحو والانقراض وتثبت في تاريخنا نقطة سوداء لا تمحى حتى القيامة—.

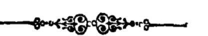
هذا ما أقدمتُ على كتابتهِ اليك على اوراق متعددة بقلم مكسور قياماً بحق نعمة الملة واستودعنهُ حميتك السلطانيَّة للنظر والعمل بهِ ان شاء الله

فهرس كتاب سر مملكة

صفحة



صفحة



انتهى الجزء الاول وسنشرع في طبع الجزء الثاني
مدير المشير
ا٠ كودج

